نوابغ الفكر العربي

٤

محمود سامي البارودي

بقلم عمر الدسوقي



دار المعارف بمصر

محمود سامى البارودى

نوابغ الفكر العربي

٤

محمود سامي البارودي

بقلم عمر الدسوقي

شاعر فارس، يده على الشعر العربي يد من أقاله من عثرته وأنهضه من كبوته وأعاد له ديباجته المشرقة ومعانيه السامية وكأنما كانت فى يده عصا ساحر صيرت الميت حياً، والضعيف قوياً والمعدم ثرياً، وكان شعره فى العصر الحديث نموذجاً لكل من أتى بعده من شعراء العربية .



دار المعارف بمصر

الفصل الأول

عصر البارودي

١ ـ الحياة السياسية

سخر محمد على كل شىء فى مصر لخدمة مطامعه ، وحروبه الكثيرة التى شنها على تركيا محاولا أن يؤسس ملكاً عريضاً . وكان محمد على هو كل شىء فى مصر ، فالأرض ملك للدولة والفلاحون يكدحون والدولة هى التى تجنى الثمرة وتترك لهم ما يقوم بأودهم .

وقد استعان محمد على بكثير من الأجانب ، وقد جاءوا أول الأمر علماء وباحثين وكان أكثرهم من فرنسا التى كان بينها وبين محمد على صداقة متينة بيد أن هذا التيار الأجنبى توقف فى عهد عباس الأول الذى كان ينفر كل النفور من الثقافة الأجنبية ولا سيما الفرنسية فنحى عن مناصب الحكم فى مصر أكثر الأجانب وبخاصة الفرنسيون ، فجاء ذكره على ألسنة مؤرخيها مشوباً بالقدح خالياً من المدح (١)

ولكن فرنسا المستعمرة لم تكن ترضى بهذا ، فإن فاتها الغزو الحربى فعزيز عليها أن يفوتها الغزو الأدبى ، والتمكين للغتها وثقافتها بأرض مصر ، فتفيد نفوذاً وتجارة ، ولعلها تجد فرصة مواتية فتتدخل فى شئون مصر ، ولذلك حثت علماءها على تأدية الرسالة التى اضطلع بها المجمع العلمى المصرى ، وشجعت الفرنسيين على الإقامة بمصر ، وحثت الأثرياء على دفع الأموال الطائلة فى القروض التى أصدرتها الحكومة المصرية ، وفى إنشاء قناة السويس ، وتأسيس المصارف

---

(١) البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الأول وسعيد للأمير عمر طوسون ص ٤١٨

العقارية إلى غير ذلك ، وبهذا خضعت مصر اقتصادياً لفرنسا ، كما عملت هذه الدولة على بسط نفوذها الثقافى بإرسال عشرات الإرساليات التبشيرية والتعليمية وفتح المدارس المختلفة (١) .

أما إنجلترا فقد أدركت أهمية مصر منذ أن غزاها نابليون ، ووثقت أن دولة قوية مثل فرنسا تستطيع أن تحول بينها وبين مستعمراتها فى الشرق الأقصى إذا استقرت بوادى النيل ، ولذلك عملت جاهدة على إخراج نابليون وجنده من مصر ، وكانت موقعة أبى قير المشهورة ، ثم حاولت غزو مصر سنة ١٨٠٧ بقيادة الجنرال « فيرزر » ، ولكن مصر تصدت لهذا الغزو الذى لا مسوغ له إلا الجشع الاستعمارى ، وهزم الإنجليز هزيمة منكرة فى رشيد فى تلك السنة . بيد أن إنجلترا لم تستنم للهزيمة . فأخذت كذلك ترسل البعثات التبشيرية الواحدة تلو الأخرى ، وعملت على تأسيس عدد من المدارس الإنجليزية بمصر ، وظلت تنتهز الفرصة للتدخل المباشر فى شئون البلاد حتى تم لها ذلك عقب الثورة العرابية .

ولقد بدت مطامع إنجلترا وفرنسا واضحة جلية ، فأثقلت على مصر الديون فأنشىء فيها صندوق الدين ، وفرضت الرقابة الثنائية ، واستحالت هذه الرقابة إلى مشاركة فى الحكم ، إذ دخل وزارة « نوبار» وزيران أوروبيان أحدهما فرنسى والآخر إنجليزى ، يشرف الفرنسى على وزارة الأشغال ويشرف الإنجليزى على وزارة المال (٢) ، وأى احتلال أبشع من هذا ؟ إن الذى يصرِّف المال قوَّام على شئون الدولة ، ومن يتولى وزارة الأشغال مهيمن على تقدم الأمة . ولذلك ثارت ثائرة الوطنيين وقادة الفكر وعلى رأسهم السيد جمال الدين الأفغانى ، فأخذ يندد بحكم إسماعيل ، وسيطرة الأجانب ، وازدياد نفوذهم ، يؤازره فى ذلك صفوة من حوارييه وتلاميذه ، وظهرت المقالات القوية ضد تبذير إسماعيل وضد الاستعمار فى جريدتى أديب إسحق « مصر والتجارة » . بل إن الوقائع المصرية وهى الجريدة الحكومية لم تسلم من الثورة ، فأخذ الشيخ محمد عبده تلميذ جمال الدين ينقد الحاكم المستبد فى الوقائع ويقول « إن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر

---

(١) « تاريخ مصر فى عهد الخديو إسماعيل » لإلياس الأيوبى ج ١ ص ٢١٨

(٢) « عصر إسماعيل » لعبد الرحمن الرافعى ج ٢ ص ٩٠

الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل » .

أخذ هؤلاء المفكرون ينادون بالدستور ، وبمشاركة الأمة فى الحكم حتى لا يقع الحاكم فى مثل ما وقع فيه إسماعيل من أخطاء ، وكان إسماعيل متبرماً بهذا النقد . بيد أن الأزمة المالية التى أوقع فيها مصر انتهت بنزوله عن العرش لابنه الخديو توفيق . وكان الناس يؤملون خيراً فى توفيق هذا ، إذ كان يجتمع بالسيد جمال الدين وهو ولى للعهد ، ويرى منه ميله للأخذ بنظام الشورى ، ويسمع منه نقده لسياسة أبيه وإسرافه ، غير أن توفيقاً لم يف بعهده بعد أن تولى الحكم ، وسرعان ما تنكر لمبادئه ولأصدقائه ، فلم يدخل نظام الشورى ، ولم يحسن معاملة السيد جمال الدين ، بل استمع لأقوال الوشاة من الإنجليز وسواهم ؛ إذ حرضوه على إخراجه من مصر [1] ، فاستجاب لهم ، ولم يكن كريماً فى معاملته له ، بل استعمل معه غاية الغلظة والجفاف ، كما أرجع المراقبة الثنائية ، وخاصم الحكم النيابى ، وحكم البلاد حكماً مطلقاً استجابة لرغبة الأجانب وتدخلهم فى شئون البلاد ، فعز ذلك على كثير من رجال مصر ، ورأوا لزاماً عليهم أن يضعوا حداً لهذا التيار الفاسد ، والاستبداد ، والرشوة ، والسخرة ، والعبودية .

ثم كانت حركة الجيش ، والمطالبة بتولية المصريين المناصب العليا فيه ، وقد كانت قبل وقفاً على الجراكسة والأتراك ، وكانوا فى منتهى الغلظة والقسوة فثار الجيش ثورته العتيدة بقيادة عرابى فى أول سنة ١٨٨١ ، وأحرز أول انتصاراته فى فبراير من تلك السنة بعزل وزير الحربية الجركسى المتعجرف المستبد « عثمان رفقى » وأسندها إلى أكبر نصرائه « محمود سامى البارودى » ، وبلغت الثورة أوجها فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ حين احتشد الجيش فى ميدان عابدين ، وتظاهر أمام الخديو توفيق وأرغمه على إسقاط وزارة رياض ، وتأليف وزارة محمد شريف ، غير أن وزارة شريف باشا لم تمكث إلا أمداً يسيراً ، وهنا تولى البارودى رئاسة الوزارة ، وحاول أن يصلح الأمور فى الجيش بالرفق والهوادة ،

---

(١) «مجلة المنار» ج ٨ ص ٤٠٤ ، وانظر كذلك The Persian Revolution. Browne, p. 8 و « تاريخ الإمام » ج ١ ص ٧٦

ولكن الأمور سارت على غير ما قدر ، وطالب الجيش بعزل توفيق ؛ وخاض البارودى الثورة مع الخائضين . ولكن دول الاستعمار كانت تتربص بمصر الدوائر فتدخلت فى شئونها ، ونهضت لحماية توفيق كما زعمت ، فضربت ضربتها فى يوليه سنة ١٨٨٢ ، واحتلت إنجلترا مدينة الإسكندرية ، وكانت مواقع بين الإنجليز ، وجيش عرابى الذى لم يكن على استعداد لخوض غمار حرب مع دولة قوية كإنجلترا ، ثم كانت معركة « التل الكبير » وهزيمة عرابى ، وإخفاق الثورة واحتلال الإنجليز لمصر .

لقد تطورت حركة الجيش من المطالبة بإنصاف المصريين إلى حركة عامة تطالب بالدستور ، وبتحرير البلاد من النفوذ الأجنبى ، وأخذ كتاب الثورة وخطباؤها أمثال عبد الله نديم ، ومحمد عبده ، يصورون ما لاقته مصر على يد الحاكم المستبد فى عهد إسماعيل ، ويصورون بؤس الفلاحين فى السخرة [١] ، والعذاب المهين الذى يصبه الرؤساء على الناس وكيف يلهبون ظهورهم بالسياط فى سبيل الجباية ، ودفع الضرائب ، حتى نفر الناس من الأرض وكرهوا زراعتها ، لكثرة ما أرهقوا به على يد الجباة والمرابين ، ولهذا كانت ثورة على الفساد والاستبداد والظلم .

لقد تطورت الثورة العرابية إلى ثورة عامة حمل لواءها الجيش ، ونهضت مصر على أثره تؤيده وتشجعه ، لولا أن مصر فى ذلك الوقت كانت ضعيفة ، وكانت مواردها قد استنزفها إسراف إسماعيل ، ولم تكن الأمة قد اكتملت يقظتها ، وكانت إنجلترا فى أوج عصرها الاستعمارى ، ولها نفوذ قوى بين الدول ؛ ولهذا كله أخفقت الثورة ، ونفى زعماؤها إلى « سرنديب » إحدى جزر الهند ، وهى من مستعمرات إنجلترا ، ومن هؤلاء الزعماء البارودى .

---

(١) كان الأهالى يسخرون فى إقامة الجسور على النيل أيام الفيضان وحفر الترع من غير أجر وكان كثير من الملاك يسخرون الفلاحين فى أرضهم بدون أجر .

٢ – الحياة العقلية

ظلت مصر وبلاد العروبة زهاء ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك والمماليك ، وهى فى ظلام دامس ، وجهل فاضح ، تعانى مرارة الظلم ، وقسوة الحرمان ؛ فقد حرمها الأتراك أغلى كنوزها ، فنقلوا كثيراً من العلماء والأدباء والأمراء ، والمهندسين ، والورّاقين ، وأرباب الحرف إلى بلادهم ، كما نقلوا أكثر الكتب التى كانت بخزائن المدارس [1] . ونهبوا أموال الأوقاف التى كانت محبوسة على العلماء ، وطلبة العلم ، فتفرق الطلاب ، وانفضت سوق العلم ، ولم يبق منه إلا ذماء [2] يسير بالأزهر .

ومن البديهى أن اللغة العربية لم تجد فى هذا العصر المظلم من يشد أزرها ، ويثيب الشعراء والكتاب المحتفين بها ؛ لأن اللغة التركية طغت وصارت اللغة الرسمية فى الدواوين ، وفشت على ألسنة الناس ، ولأن الحكام لا يفقهون العربية ، ولا يقدرونها قدرها ، ولا يميزون بين الجيد والغث من الكلام حتى يلجأ إليهم الشعراء مادحين ، ولم يعد فى استطاعة كثير من الكتّاب أن يسلموا من اللحن الفاحش ، أو يأتوا بالمفهوم المقبول ، بل عزّ عليهم اللفظ الجزل ، والأسلوب القوى ، فلجئوا للزخرف والمحسنات يخفون بها عوار [3] كلامهم ، وقد أكثروا من هذه الحلى اللفظية حتى استغلق الكلام ، وأتوا بالغث السمج الذى إن حسن فيه شىء كان سرقة واغتصاباً من آثار من سبقوهم من الكتّاب .

ظلت مصر على هذه الحال حتى دوّت فى آفاقها مدافع نابليون ، فهبّت من سباتها العميق فزعة مذعورة ، وأخذت تقلب الطرف دهشة فى هذه الجيوش العجيبة ، والوجوه الغريبة ، وعرفت أن ثمة دنيا أخرى حافلة بالعلم والحضارة والمال والقوة غير دنيا الأتراك والمماليك وما فيها من جهل وضعف وذلة وانحلال .

---

(١) راجع ابن إياس الجركسى فى كتابه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وقد أرخ لمصر حتى أوائل الاحتلال العثمانى .

(٢) الذماء : بقية النفس . (٣) العوار : العيب .

واصطحب نابليون معه كل عدد الاستعمار والاستقلال والإيقاظ ، فأنشأ مسرحاً للتمثيل ، ومدارس لأولاد الفرنسيين ، وجريدتين ، ومصانع ، ومعملا للورق ، ومطبعة ، ومراصد فلكية ، وأماكن للأبحاث الرياضية ، ومكتبة عامة وقد جمعت بعض كتبها من المساجد والأضرحة ، وأنشأ المجمع العلمى المصرى على نظام المجمع العلمى الفرنسى ، وقد أفاد هذا المجمع مصر والتاريخ بآثاره وأعمال رجاله ، وصارت أبحاثهم هى النواة الأولى لكل بحث خاص بمصر ، ولا بدع إذا ظل المجمع العلمى هو الأثر الباقى حتى اليوم من آثار حملة نابليون ، وذلك لجليل فائدته وهذا ما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن حملة نابليون على مصر كانت علمية أكثر منها حربية (١) .

وعلى الرغم من قصر المدة التى قضتها الحملة الفرنسية بمصر ، فقد تركت بها أثراً لا يمحى ، وظل المصريون ردحاً طويلا من الزمن يعجبون بنابليون بعد خروجه من ديارهم ؛ « وظلت طرق الإدارة الفرنسية مهيمنة على حكومة مصر ، وظلت عادات التفكير الفرنسية تسيطر على الطبقة المستنيرة بمصر ، وإن ما خلفته الحملة الفرنسية فى مصر خلال ثلاثة أعوام لا غير لمن أضخم ما يتسنى إنجازه فى هذا الأمد الوجيز (٢) » .

ثم أتيحت لمصر الفرصة فى أن تواصل أمد اليقظة التى ابتدأت على يد نابليون ورأت أنه لا يستقيم لها الأمر إلا إذا كان تحت إمرتها جيش قوى ، وكان وراءه شعب ناهض ؛ فوضعت أسساً متينة لنهضة شاملة فى الجيش والصناعة والزراعة والتعليم والإدارة حتى يكون البعث عاماً يدفع بعضه بعضاً .

وقد وجدت مصر أن خير وسيلة تنهض بالشعب وترفعه إلى مستوى الأمم الناهضة هى الاهتمام بالتعليم ؛ فسلكت فى تعليم الشعب كل الطرق الناجحة : فمن بعثات ، وطباعة ، وفتح مدارس ، ونقل آثار الأمم الغربية فى العلوم والآداب ، وتأسيس الصحافة لتنير الحياة أمام الأمة .

توالت البعثات إلى أوربا وكانت إحدى عشرة بعثة آخرها سنة ١٨٤٧

---

(١) « تاريخ مصر السياسى » لمحمد رفعت ج ١ ص ٣٩

(٢) The Transit of Egypt, by P.G. Elgood, p. 45.

للتخصص فى شتى العلوم والفنون : من حقوق ، وعلوم سياسية ، وهندسة حربية ، وطب ، وزراعة ، وكيمياء ، وطباعة ، وحفر وغير ذلك مما استلزمته النهضة الحديثة [١] . ولقد كان لهذه البعثات أثر بالغ فى تقدم مصر ، ونهضتها وإرسال نور العلم دافقاً قوياً فى ربوعها ، كما كان لها أعظم الفضل فى إحياء اللغة ، وجعلها مسايرة بعض الشيء للعلم الحديث ، بما ترجمه أعضاؤها من كتب ، وما أدخلوه من مصطلحات ، وما ألفوه فى شتى نواحى العلم ؛ ومن أشهر هؤلاء الشيخ رفاعة الطهطاوى ، الذى ذهب إلى فرنسا إماماً للبعثة ، ولكن نفسه الطموح دفعته لدراسة الفرنسية وإتقانها ، وعنى بكتب الفلسفة والأدب والتاريخ والجغرافيا ، وترجم وهو فى باريس كتابه « قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » . وهو أول من كتب من المصريين فى المباحث الدستورية ، مع أن هذه المباحثات كانت مجهولة فى تاريخ مصر القومى، وعرَّب فى كتابه « تخليص الإبريز » دستور فرنسا فى ذلك الحين ، وما تضمنه من نظام المجلسين ، وحقوق الأمة أفراداً وجماعات ، وهو الذى أشار بإنشاء مدرسة الألسن ، وفيها تخرج على يديه صفوة من العلماء والمترجمين الذين ملئوا مصر علماً هم وتلاميذهم حتى بلغ ما ترجموه زهاء ألفى كتاب . وهو أول من كتب فى المسائل الوطنية والقومية ، وواجب المواطن الصالح [٢] ، وترجم رواية « تليماك » [٣] وهى أول رواية تنقل إلى الأدب العربى الحديث .

وعنيت النهضة بالطباعة فأسست مطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ وهى إلى اليوم تعد أكبر مطبعة عربية فى العالم ؛ ولما كان اتجاه مصر فى ذلك الوقت حربيًّا

---

(١) راجع فى بعثات محمد على Journal Asiatique عدد أغسطس ١٨٢٨ ص ١٠٩ ، و« الخطط التوفيقية » لعلى مبارك ج ١٢ ص ١٠

(٢) راجع « المرشد الأمين للبنات والبنين » للشيخ رفاعة الطهطاوى ص ٩٠ – ٩٣

(٣) مؤلف « تليماك » هو الأسقف والكاتب الفرنسى الشهير فنلون (١٦٥١ – ١٧١٥) كان مؤدب الدوق دى بورجونيا وكتب له عدة كتب منها هذا الكتاب ونشره سنة ١٦٩٩ وأودعه نقداً خفياً لحكومة لويس الرابع عشر فأثار القصر عليه . ولقد استوحى فنلون موضوعه من قصة تليماك المشهورة فى الآداب الإغريقية القديمة وملخصها أن تليماك هذا هو ابن عولس تركه أبوه صغيراً لما ذهب إلى حرب طروادة فلما اشتد ساعده جد يبحث عن أبيه تقود خطواته منيرفا إلهة الحكمة والفنون بعد إذ تزيت فى زى منتور صديق عولس الحميم .

علمياً فإن مطبعة بولاق لم تعن فى أول الأمر إلا بالكتب العلمية ، والكتب المترجمة التى يقدمها أعضاء البعثات العائدون إلى مصر ، ولم تهتم بالكتب الأدبية إلا فى عصر إسماعيل .

أما الصحافة فقد وضعت النواة الأولى لها بإنشاء الوقائع المصرية ، واختيار أفاضل العلماء والكتاب لها .

ثم أنشئت عدة مدارس عليا كالطب والصيدلة والهندسة ، وجلب لها كبار الأساتذة من فرنسا ، ولكن العناية الكبرى كانت موجهة للجيش وتقويته ، وإنشاء المدارس التى تعنى به وتقوم على خدمته ، ولم تلتفت مصر للأدب أدنى التفاتة ، وذلك لأن مصر لم تكن بحاجة للأدب حاجتها إلى جيش قوى تدعم به عرشها ، وتؤسس دولتها ؛ فكان كل شىء فى مصر ، وكل البعثات من طبية وهندسية وصناعية وغيرها تهدف إلى خدمة الجيش ورجاله .

ومع ذلك فقد كانت هذه النهضة الحربية أساساً للنهضة العلمية الأدبية التى ظهرت فيما بعد ، فالمدارس التى فتحت فى مستهل النهضة ، والكتب التى ترجمت ، والبعثات التى تزودت من علوم أوربا واطلعت على حضارتها ، أسهمت كلها فى الوثبة التالية ، وساعدت على نجاحها .

على أن ركب النهضة لم يواصل سيره ، بل أصيبت مصر بنكسة سنة ١٨٤٩ على يدى عباس الأول وسعيد كادت ترجع بمصر القهقرى إلى عصور الظلمات ، إذ كانا من دعاة الرجعية ، فألغى عباس حين توليته كل المدارس العالية إلا المدرسة الحربية ، وعطل الوقائع المصرية ، وأغلق المصانع ووقف البعثات ، وظلت مصر تعانى من هذه النكسة ما تعانى حتى سنة ١٨٦٣ حينما جاء إسماعيل ، وليس بمصر إلا مدرسة ابتدائية واحدة ، ومدرسة حربية ، وأخرى طبية ، وثالثة للصيدلة ، فاستأنفت مصر نهضتها وأعادت للبعثات سيرتها الأولى وأخذت الحياة تدبّ إلى كل نواحى التعليم ، فأعيدت المدارس العالية التى كانت فى عهد محمد على كالهندسة والطب ، وزيد عليها مدرسة الحقوق ، وكانت تسمى مدرسة « الإدارة والألسن » ، وفى ذلك العهد أنشئت دار العلوم ينشّأ فيها الطلبة تنشئة لغوية وأدبية وشرعية مع قسط وافر من العلوم الحديثة وطرق التربية ، وقد كان

لها أثر بالغ فى إحياء اللغة وتجديد أساليبها ، فنفضت عن تراثها المجيد غبار القرون ، وقدمته للناس رائعاً جذاباً ، وعكف أبناؤها على تعليم النشء ، وتقويم ألسنتهم ، وتدريب أقلامهم ، وتقديم الكتب التى تنهج نهجاً علمياً نفسياً ، ولا تزال حتى اليوم تقوم بنصيبها الوافى فى نهضة التعليم واللغة .

وفى هذا العهد أنشئت أول مدرسة للبنات سنة ١٨٧٣ وهى مدرسة السيوفية ، وأنشئت عدة مدارس ثانوية وابتدائية للبنين ، وأعيد ديوان المدارس — وهو نواة وزارة المعارف — بعد أن ألغاه سعيد . ومن الوسائل التى ساعدت على النهضة الأدبية والعلمية فى ذلك العصر « دار الكتب » ، فقد يسرت العلم للراغبين فيه ، وحببت للناس الاطلاع على الكنوز المدفونة ، وعاونت المؤلفين والباحثين ، وساعدت الناشرين والطابعين على استنساخ نفائس الكتب وإشاعتها بين الناس .

وكثرت الجمعيات العلمية فى ذلك العصر ، وكثرتها دليل على حيوية الأمة ويقظتها ورغبتها فى السير نحو الكمال ، غير معتمدة على الحكومة فى غذائها العقلى ، فإذا اضطرب أمر الحكومات ، أو وليها من لا يحسن القيام بشئون الحكم لا يصاب الشعب بالشلل العقلى ، ولكن يمضى فى طريقه قُدماً ، يتثقف ويستعد للنضال فى سبيل الحياة السعيدة بهمم أفراده اليقظين ، والجمعيات القوية المنظمة. فمن ذلك جمعية المعارف التى أسست سنة ١٨٦٨ ، وهى أول جمعية علمية مصرية ظهرت لنشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر ، وقد قامت بطبع طائفة من أمهات الكتب فى التاريخ والفقه والأدب ، ولقيت تشجيعاً عظيما حتى بلغ عدد أعضائها ستين وستمائة عضو من الطبقة الممتازة فى الأمة [١] .

ومن الذين عنوا بنشر الكتب القديمة وإخراجها الشيخ رفاعة الطهطاوى ، فنشر « معاهد التنصيص » ، و « خزانة الأدب » ، و « مقامات الحريرى » [٢] وغيرها . ومن الجمعيات التى ظهرت فى ذلك العصر الجمعية الخيرية الإسلامية أنشئت أول الأمر بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ حين دفعت الحماسة جماعة من

---

(١) راجع « عصر إسماعيل » لعبد الرحمن الرافعى ج ١ ص ٢٥٦
(٢) « الخطط التوفيقية » لعلى مبارك ج ١٣ (ص ٥٥ – ٥٦)

المتعلمين بالثغر – رأوا طغيان الأجانب ، واشتداد نفوذهم ، واستئثارهم بمرافق البلاد – إلى تأسيسها ، وانضم إليها السيد عبد الله نديم وأسس أول مدرسة حرة يتعلم فيها المصريون وينشئون تنشئة وطنية صالحة ؛ وظلت الجمعية قائمة حتى شبت الثورة العرابية ، فتفرق القائمون بأمرها . وعلى غرارها أنشئت جمعية بالقاهرة تحمل اسمها سنة ١٨٩٢ أسسها الشيخ محمد عبده .

هذا وقد تقدمت الصحافة فى ذلك العهد تقدماً عظيما ، وساعدت على تحرر اللغة من آفاتها القديمة التى ورثتها من عصور الانحطاط . ومن الصحف التى كان لها أكبر الأثر فى تذليل اللغة العربية للأسلوب الصحفى صحيفة « الجوائب » لأحمد فارس الشدياق ، وكان أول ظهورها بالآستانة سنة ١٨٦٠ وقد افتن صاحبها فى تحريرها وتخير موضوعاتها ، وجمع فيها بين السياسة والأدب بشتى ضروبه وأبوابه بما فى ذلك القصائد البليغة لكل شعراء العربية فذاعت ، وأقبل الناس على قراءتها بشغف بالغ ، ولم تدع بلداً عربياً أو إسلامياً إلا دخلته واقتبس الناس منها ، وحكوا عنها ، وظلت تعمل حتى سنة ١٨٨٤ ، وقد اشتركت فيها الحكومة المصرية بألفى نسخة .

ومن الصحف التى عملت على نشر الأدب وتشجيع الأدباء « مجلة روضة المدارس » التى أنشأها العلامة على مبارك سنة ١٨٧٠ ، وأشرف على تحريرها الشيخ رفاعة الطهطاوى ، وأسهم فى إخراجها نخبة من جلة العلماء والأدباء فمهدت السبيل للصحافة الحديثة ، وكانت توزع بالمجان على جميع التلاميذ ، وقد فسحت فى أعمدتها للطلبة ينشرون فيها أبحاثهم الجديدة وقصائدهم .

وقد صدرت عدة صحف إخبارية فى مصر كجريدة « وادى النيل » التى أنشأها الكاتب الأديب الشاعر عبد الله أبو السعود ، و « نزهة الأفكار » للأديبين الكبيرين إبراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال . وقد ساعد على تقدم الصحافة بمصر هجرة جماعة من الأدباء السوريين إليها عقب حوادث ١٨٦٠ حين فروا بحريتهم من الاضطهاد ، فجاءوا مصر ، وقلوبهم تغص بالإحن والحقد على تركيا ، وفى نفوسهم ميل إلى الحرية ، والتنفيس عن الآراء المكبوتة ، وقد شجعتهم مصر على الإقامة بها والإسهام فى نهضتها ، فأسدوا للصحافة ولنشر

الثقافة خدمات جليلة . ومن هؤلاء أديب إسحق صاحب جريدتى « مصر والتجارة » ، وكان أديب فلتة من فلتات الزمن ، استطاع – على حداثة سنه – أن يتوهج فى سماء الأدب والسياسة والخطابة نجماً ساطعاً ، وأن يكوّن مدرسة إنشائية يحتذيها الأدباء والخطباء ؛ وكان من الذين امتلأت قلوبهم بحب مصر والشرق ، ورأى الأجانب الطامعين ، والمرتزقة ، والأفاقين ، فأضرمها عليهم ناراً مشبوبة ، لا تخمد لها جذوة فى كل مكان حل به ، وما أكثر ما ارتحل وشُرد فى سبيل مبدئه وفيض وطنيته وحرارة أسلوبه حتى احترق صغيراً ، ومات ولما ينته العقد الثالث من عمره .

ومنهم سليم وبشارة تقلا صاحبا « الأهرام » التى صدرت فى سنة ١٨٧٥ ، ولا تزال تصدر حتى اليوم . وغير هؤلاء من الصحفيين السوريين والمصريين عدد كبير ، عملوا على ترويج الثقافة ، وتنبيه الأفكار ، ونقد الحكام ، وبحث المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . كما خلّصت هذه النهضة الصحفية اللغة من أسرها القديم ، وأوضارها التى ورثتها من عصور الضعف ، وخاضت فى موضوعات شتى ، وسلُس الأسلوب ، واحتذى الصحفيون أسلوب ابن خلدون فى مقدمته وهو ذلك الأسلوب السهل المرسل ، مبتعدين عن السجع ، وتكلف المحسنات .

ومن العوامل التى ساعدت على نمو الحياة العقلية وتقدمها انتشار المطابع ، فلم تعد مطبعة بولاق وحدها بل أسست عدة مطابع أهلية أخذت تحيي تراث السلف من أدباء العرب ، وتنشره للناس ، ومن أشهر الكتب القديمة التى طبعت فى تلك الحقبة : « المثل السائر » ، و « الأغانى » ، و « مقدمة ابن خلدون » ، و « العقد الفريد » ، و « وفيات الأعيان » ، و « الإحياء » للغزالى ، و « تفسير الرازى » وغيرها من أمهات الكتب ، بجانب عشرات الدواوين لمشاهير الشعراء . مما سهل على الشادين فى الأدب ، والمغرمين به الاطلاع ، والحفظ ، والبحث ، ومن هؤلاء البارودى .

ولكن هذا التيار العربى القديم لم يكن المنبع الوحيد الذى يروى ظمأ الصادين المتعطشين للآداب ، بل كان ثمة تيار آخر أجنبى ابتدأ منذ عصر النهضة ،

وإن لم يشتد إلا فى هذا العصر بعض الشىء؛ وقد عنى أول الأمر بالكتب العلمية إلا أنه ما لبث أن اهتم بالكتب الأدبية فأخذ المتخرجون فى مدرسة الألسن ينقلون ما لذ لهم من عيون الكتب الفرنسية فى القانون والأدب ، وعلى رأسهم محمد عثمان جلال الذى ترجم عدداً من المسرحيات والقصص المشهورة فى الأدب الفرنسى ، وترجم أمثال « لافونتين »[١] فى كتاب سماه « العيون اليواقظ » ، كما ترجم يعقوب بن صنوع الصحفى اليهودى صاحب « أبى نضارة » الجريدة الهزلية عدداً من المسرحيات مثلت مراراً ، وكذلك ترجم أديب إسحق ، وسليم نقاش لمسرحهما عدداً من المسرحيات الفرنسية[٢] وقام نجيب الحداد بعبء ضخم فى هذا السبيل.

ولا نستطيع ونحن نتكلم عن الحياة العقلية فى عصر البارودى أن نغفل شخصية علمية كان لها أكبر الأثر فى حياة شاعرنا ، ألا وهى شخصية السيد جمال الدين الأفغانى ، فعلى الرغم من أن شخصيته السياسية طغت على شخصيته العلمية ، إلا أن أثره فى الأدب العربى الحديث أجل من أن يهمل .

دخل جمال الدين مصر فى سنة ١٨٧١ ومكث بها ثمانى سنوات كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى الشرق العربى والإسلامى ، وأخذ عقله المنظم الجبار يشع النور فى كل مكان يحل فيه صاحبه ، فدروس منظمة يلقيها فى بيته على صفوة مختارة من حوارييه أمثال محمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وكانت هذه الدروس فى المنطق والفلسفة والتصوف ؛ إلى مجلس آخر بأحد المقاهى مساء كل يوم حيث يلتف حوله أنماط شتى من الراغبين فى التزود من علمه وفكره ، يجلسون إليه ويطرحون عليه أسئلة فى مختلف الموضوعات ، وهو يجيب إجابة العالم المحقق « لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أويطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشؤون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ،

---

(١) لافونتين شاعر فرنسى مشهور ولد فى سنة ١٦٢١ ، وتوفى بباريس سنة ١٦٩٥ ، ولا يزال كتابه « الأمثال » حتى اليوم ذا منزلة عظيمة فى عالم الأدب ، وقد نظم فيه كثيراً من القصص الرمزية ، وقصصاً على ألسنة الحيوان من أمثال تلك التى فى كليلة ودمنة .

(٢) إذا أردت المزيد عن نشاط الترجمة فى ذلك العصر فارجع إلى كتابنا « فى الأدب الحديث » ولكتاب « حركة الترجمة فى مصر لجاك تاجر » .

فاستيقظت مشاعر ، وتنبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصاً فى القاهرة » (١) .

وفى هذه الحلقة أنشئت مدرسة غير مقيدة بمنهج أو كتاب ، ولكنها كانت روحاً مشعة تبدد دياجير الغفلة ، وتحيي العزائم الميتة ، وتلهب الإرادات الخامدة ، وتفتح الأذهان المغلقة ، وفيها تخرج البارودى ، والمويلحى ، ومحمد عبده ، وإبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وأديب إسحاق وغيرهم . وفى هذه المدرسة العامة استعرضت أحوال الأمة الاجتماعية والسياسية ، وحقوقها وواجباتها ، وأدواؤها ودواؤها ، وانتقد الحكام ، وبثت تعاليم الوطنية ، وفشت روح التذمر من الأجانب وتدخلهم فى شئون البلاد مما كان له أبلغ الأثر فيما بعد .

وبحسب جمال الدين أثراً فى الأدب أنه وجهه إلى الاهتمام بالشعوب ومشكلاتها ، بعد أن كان كله يدور حول الأمير وحاشيته ، فصرنا نسمع الكتاب والشعراء يدافعون عن الشعوب المظلومة التى تئن تحت نير العبودية والعسف . لا تعرف كيف تراجع الحاكم فى حكم أبرمه ولو كان ظالماً ، ولا كيف تثور وتئن وتتوجع وتسمع شكاتها للعالم ، والحاكم سادر فى غلوائه (٢) . يمتص دماءها ، ويسخرها لأهوائه وشهواته ، ولا يفكر فى نفعها إلا بمقدار ما يعود عليه هو من الفائدة . ولقد كانت مصر تئن وتتوجع فى هذا العصر من الضرائب القاسية ، والاستبداد والظلم والسخرة والجلد ، والفقر والجهل وصرنا نسمع الكتاب والشعراء فى ذلك العصر يدعون إلى الأخذ بنظام الشورى فى الحكم ، حتى تشعر الأمة أن مقدراتها بيدها ، وحتى تأمن جانب الحكام وعبثهم بكنوزها وأرزاقها ، بل مقامرتهم على استقلالها وحريتها .

٣ ـ الحياة الاجتماعية

كانت مصر فى عهد محمد على أشبه بمزرعة كبيرة خاصة به وبحاشيته ، يديرها مشرفون من قبله يسمون « الملتزمين » ، يجبون له من خيرات البلاد ما

(١) من ترجمة السيد جمال الدين الأفغانى بقلم الشيخ محمد عبده .
(٢) سدر فى غلوائه : أمعن فى الغلو غير مبال بما يصنع .

يفرضه عليهم ، فيرهقون الفلاحين بالطلب ، ويأخذونهم بالعنف والقسوة حتى يحصلوا منهم ما التزموا به ، ويوفروا لأنفسهم ما يهيء لهم العيش الرغد . وكان هم محمد على منصرفاً إلى الجيش ليوطد به أركان ملكه ويوسع رقعته ، وفى سبيل الجيش ونهضته أسست مدرسة الطب ، والهندسة والصيدلة وغيرها من المدارس العليا ، والمدارس الثانوية والابتدائية التى تُوصل إليها ، ولهذا لم يكن لعامة الشعب نصيب كبير من هذه النهضة ، بل لم يلتفت محمد على إلى إصلاح حال الشعب ولا اهتم بمعالجة فقره ، ومرضه ، ورفع مستوى معيشته ، ومطاردة الأوهام والخرافات المسيطرة على عقليته .

ثم كان عهد عباس الأول وسعيد أسوأ من عهد محمد على ، فقد أصيبت مصر فى عهدهما بنكسة فى التعليم والجيش ؛ ثم جاء إسماعيل وسار على سنة جده واهتم بمظاهر المدنية الأوربية اهتماماً عظيما ، وأسرف وبذّر فى أموال مصر ، وأرهق الناس بالضرائب حتى وصلوا إلى الدرك الأسفل من الفاقة فهجروا الأرض ، وفروا بأبدانهم من سياط الجباة .

استمعْ إلى الشيخ محمد عبده يصف ما كانت عليه حال عامة المصريين فى ذلك العهد : « كان أهالى بلادنا محملين من الأثقال النقدية ما لا يطيقون من ضرائب على الأراضى متنوعة متكثرة ، تتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والأعوام . وغرائم تفرض على الأنفس وتوابعها من غير نظام ، لا تنتهى عند غاية . ولا تقف عند حد ، حتى بلغت نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشىء مما فرض عليهم ، ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم ، وقت معين . ولا قاعدة معروفة ، بل كان ذلك على حسب اشتهاء الحاكم وإرادته غير المرتبة . فتارة يجبرون على أداء جميع أموال السنة بأنواعها فى أول شهر منها ، وتارة يطالبون بأموال السنة القابلة فى منتصف السنة الحاضرة . ولا محيص لهم عن الأداء ، فإن من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك ، والحبس المؤبد ، أو انتزع منه جميع ما بيده قهراً ، وما شاكل ذلك من المعاملات الخشنة » (١) .

---

(١) « تاريخ الشيخ محمد عبده » ج ٢ ص ٧٤ ، وص ١٧٠ ، و « الوقائع المصرية » عدد ٢٥ نوفبر سنة ١٨٨٠ وعدد ١٩ يونيه ١٨٨١

فكان الفلاح من جراء هذه القسوة والجبروت بين عاماين أحلاهما مرّ : إما أن يلجأ إلى من يقرضه بالربا الفاحش ، إذا آثر الاحتفاظ بأرضه ، وسرعان ما ينوء كاهله عن سداد ما عليه من ديون فتنزع منه أرضه ؛ وإما أن يتركها وينجو ببدنه . وشعب هذه حال جمهرة بنيه لا ينتظر منه أن يعنى بشئونه الاجتماعية : من خلقية ، واقتصادية ، وصحية ، بل تراه نهباً للجهل والخرافات والمرض والانحلال .

وبينما كان الفلاحون يعانون فى سبيل العيش ، والاحتفاظ بأرضهم ما يعانون من ضرائب ، وسخرة ، وجلد ، وظلم دائم ، كانت الطبقة الحاكمة من أبناء الشراكسة والأتراك تتمتع بكل خيرات البلاد ، وتستنزف دماء هؤلاء الفلاحين ، وتبذّر الأموال فى سفه وطيش .

ولقد منّ لورد كرومر على مصر حين ألغى كل هذه المظالم ، وقد صور فى كتابه « مصر الحديثة » كيف أن عهده كان نعمة على الفلاح إذا قيس بعهد إسماعيل فقال : « لقد سرت روح جديدة بالتدريج إلى سكان مصر ، وتعلم الفلاح كيف يمعن النظر فى حقوقه ، وتعلم الباشا أن لمن يجاوره من الفلاحين حقوقاً يجب احترامها ، وعلى الرغم من أن السوط كان لا يزال معلقاً على جدار المديرية ، فإن المدير لم يجرؤ على رفعه واستعماله فوق ظهر الفلاح . وقداختفت السخرة البغيضة من مصر ، وذهب الرق عملياً من الوجود ، وانقضى أجل الأيام السعيدة التى كان يتمتع فيها المرابون باستنزاف دماء المصريين ، وأصبح للقانون الكلمة العليا فى كل مكان ، بعد أن كان القضاء يباع ويشترى ، وابتدأ المصريون يحبون أرضهم ، ويعملون بها بعد أن كانوا يحتقرونها ، لتمنحهم هباتها وخيراتها فاستجابت لدعوتهم كريمة معطاءة . وقد أحكم توزيع مياه النيل بالعدل والقسطاس المستقيم بين أرض الأمير الكبير والفلاح الصغير ، ونظمت وسائل النقل واتسع نطاقها ، وأصبح المرضى يعالجون فى مستشفيات جيدة الإدارة »[١].

أجل ؛ لقد أراد المحتل الأجنبى أن يتودد إلى شعب مصر ويظهر بأنه أرأف به وأرحم من ولاته المستبدين القساة فرفع عن كاهله كل هذه المظالم .

---

(١) Earl Cromer : Modern Egypt. vol. II, PP. 55-75

وإن أساء إليه بعد ذلك إساءات لا تغتفر [١] .

ولقد كمم إسماعيل الأفواه ، وغل الأقلام ، وضرب على الصحافة قانوناً صارماً ، وصادر الحريات العامة والخاصة ، وكان حكمه استبدادياً قاسياً ، يفصل فى الأمور كلها برأيه ، ولا معقب لحكمه « ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣ هـ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأناً فى مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ، ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مبدع المجلس قيده فى النظام وفى العمل ولو حدّث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة خير غير التى يوجهه إليها الحاكم لما أمكنه ذلك ، فإن بجانب كل لفظ نفياً عن الوطن ، أو إزهاقاً للروح ، أو تجريداً من المال [٢] » .

ولا ريب أن هذا الكبت والتضييق على الحريات أوغر الصدور ضد إسماعيل فتألفت بعض الجمعيات السرية لتحطيم تلك الأغلال كجمعية « مصر الفتاة » وكان من أهم أغراضها محاربة إسراف إسماعيل وتهوره ، وتدخل الأجنبى فى شئون البلاد وتجبره ، وكان من أهم أعضائها وأبرزهم عبد الله نديم ، وقد حول هذه الجمعية السرية إلى جمعية علنية تعمل فى ضوء النهار وسماها « الجمعية الخيرية الإسلامية » وذلك فى سنة ١٨٨٠ . وقد جعلت نصب عينيها الاهتمام بالتعليم الوطنى ، وتنظيم الإحسان ، والثورة الشديدة على نفوذ الأجانب الذى استشرى فى البلاد . كما أن مصادرة الحريات والقسوة العارمة من الحكام أوجدت طبقة من المنافقين والنفعيين الذين برم بهم الوطنيون المخلصون ودعاة الإصلاح ، وقد شن عليهم البارودى حملة شعواء فى شعره ، لأنه لقى من كذبهم ونفاقهم وخداعهم مصائب جمة .

لقد كان المجتمع المصرى فى ذلك العصر — عصر إسماعيل وأوائل عهد توفيق ، يتكوّن من أبناء الطبقة الحاكمة ومعظمهم من الشراكسة والأتراك ، وهم أصحاب النفوذ ، وكبار الموظفين ، ولقد ظلت اللغة التركية هى لغة الدواوين

---

(١) راجع الفصل الأول من كتابنا « فى الأدب الحديث » الجزء الثانى .

(٢) محمد عبده فى العروة الوثقى .

معظم عهد إسماعيل حتى ترجم عبد الله فكرى اللوائح إلى العربية[١] ، فلا بدع إذا آثرت الحكومة أبناء الأتراك ومن يجيد التركية بالوظائف الكبيرة . وكان لا هم لأبناء الخاصة هؤلاء إلا العبث واللهو والإسراف فى الزينة والمأكل والملبس، وتقليد الحياة الأوربية تقليداً أعمى ،ولقد وصفهم محمد عبده فأبدع فى وصفهم، ونصحهم فى أكثر من مقال فلم ينتصحوا[٢] . ووصفهم البكرى فى صهاريج اللؤلؤ وصفاً شائقاً . على أن قليلا منهم عنى بحياة الجد، وتشجيع الأدب والأدباء، فكانت لهم فى منازلهم مجالس يغشاها الكتّاب والشعراء ، وكانوا يعتبرونهم ندماء لهم ، ولذلك شاع أدب الندماء فى هذا العصر ، وقد وصف عبد الله نديم بعض هذه المجالس ومن يغشاها وصفاً بارعاً[٣] كما حدثنا المرحوم أحمد تيمور عن بعض هذه المجالس[٤] .

أما سواد الشعب وهم أبناء العامة ، فالمتعلمون منهم ، سواء هؤلاء الذين تعلموا فى الأزهر أو فى مدارس الحكومة ، يمثلون العنصر الصالح فى الأمة ، وكانت تغلب عليهم المحافظة على التقاليد ، والامتثال لأوامر الدين ، وقد كانوا فيما بعد عماد الحركات القومية ، وعدة مصر فى جهادها ؛ أما غير المتعلمين وهم الغالبية العظمى فى الريف وفى المدن ، فكانت تسود بينهم الخرافات ، وإن كانوا على شىء من الطيبة والتحفظ ، إلا أن الجهل كان يفعل بعقولهم الأفاعيل ، ترى ذلك فى الحفلات الدينية ولاسيما فى الموالد .

وكان كثير منهم يدمن على المخدرات ولا سيما الحشيش والأفيون فى جلسات خاصة أو عامة[٥] ، وكانوا يقضون أوقات فراغهم أحياناً فى المقاهى يلتفون حول قاص من القصاص يحكى لهم سيرة عنترة أو أبى زيد الهلالى ، ويزيد عليها من عنده . وقد أوقعهم الجهل فريسة للمرابين والمحتالين من الأجانب[٦] .

---

(١) راجع « فى الأدب الحديث » الجزء الأول ص ١٢٦

(٢) راجع «الوقائع المصرية» عدد ٩ فبراير سنة ١٨٨١ ، و«العروة الوثقى» العدد الثالث .

(٣) راجع « سلافة النديم » ج ١ ص ٢٤

(٤) تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجرى .

(٥) العدد الأول من « التنكيت والتبكيت » لعبد الله نديم .

(٦) المصدر السابق .

الفصل الثانى

البارودى فى عصره

١٢٥٥ – ١٣٢٢ هـ ؛ ١٨٣٨ – ١٩٠٤ م

١ – حياته

هو محمود سامى البارودى من أسرة جركسية ذات جاه ونسب قديم ، فأبوه حسن حسنى البارودى كان من أمراء المدفعية ، ثم صار مديراً لبربر ودنقلة فى عهد محمد على ، وجده لأبيه عبد الله الجركسى . والبارودى نسبة إلى « إيتاى البارود » بمديرية البحيرة . وكان أحد أجداده ملتزماً لها . وينتسب أجداده إلى حكام مصر المماليك .

وتيتم البارودى صغيراً وهو فى السابعة من عمره ، فحرم بذلك حنان الأب ورعايته . وتلقى دروسه الأولى فى البيت حتى بلغ الثانية عشرة . ثم التحق بالمدرسة الحربية مع أمثاله من الجراكسة والأتراك ، وأبناء الطبقة الحاكمة ، وتخرج فى المدرسة الحربية سنة ١٨٥٤ وهو فى السادسة عشرة من عمره فى عهد عباس الأول. وكان عباس هذا من المعوقين للنهضة ، فقد خمدت فى عهده روح الحماسة فى الجيش ، بل سرح معظمه ، وأقفرت ميادين القتال من ألوية مصر ؛ ولم يكن عهد سعيد أحسن حالا من عهد عباس ، فلم يجد البارودى — كما لم يجد زملاؤه —عملا يعملونه بعد تخرجهم ؛ أما هم فقد طاب لهم عيش الرخاء والدعة ، وسرهم البعد عن ميادين القتال ، ولكنه أحس دونهم بألم ممض ، لأنه لم يشترك فى حرب كما اشترك آباؤه ، وكم كان يود أن يحقق عن طريق الجندية آمالا ضخمة ، وأمانى عريضة ، ودفعه هذا الألم إلى طلب العوض عن المعارك الحقيقية بمعارك موصوفة مدونة فى صفحات التاريخ ، فعكف على كتب الأقدمين — وقد يسر

له سبيل الحصول عليها — يلتهمها التهاماً . وكانت ملكة الشعر كامنة فى حنايا صدره ، فراقه من التراث الأدبى شعر الحماسة والفخر ، ووصف ميادين القتال ، وأعمال الأبطال ، ورأى فى هذا الأدب تصويراً للحياة حلوها ومرها من غزل وفكاهة وحكمة ورثاء ، فازداد شغفه به وحرصه على حفظه وتدوينه ، وتحركت نفسه لقول الشعر فقلد فحول الشعراء فى أروع قصائدهم . ولم يجد غضاضة — وهو من الطبقة الحاكمة — فى أن يقول الشعر[1] وقد سبقه إلى قوله من هم أعرق منه نسباً ، وأعلى حسباً ، من أمثال امرئ القيس وابن المعتز والشريف الرضى وأبى فراس وأضرابهم ، فلم لا يكون مثل هؤلاء ! ، ولم لا يرتفع بالشعر إلى منزلتهم ؟ إنه لن يكون مثل شعراء عصره مداحاً متملقاً ، أو نديماً منافقاً ، ولكن سيقوله فى أغراض شريفة تليق به وبمكانته . . .

الشعر زين المرء ما لم يكن وسيلة للمدح والذام

وما كان للبارودى أن يعرض عن قول الشعر ، ولو حاول ما استطاع ، وفيه طبع شاعر ، وقد ملك أداته اللغوية المعبرة :

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت به عادة الإنسان أن يتكلما
فلا يعمدنى بالإساءة غافل فلا بد لابن الأيك أن يترنما

وفى هذا رد على ما كان يعيب عليه قول الشعر من أبناء طبقته . ولكن مصر ضاقت به ، أو ضاق بها ، حيث لم يجد غنية لدى الدولة تحقق آماله ، فسافر إلى الآستانة مقر الخلافة ، والتحق بوزارة الخارجية ، وهناك أتقن التركية ، وتعلم الفارسية ، ودرس آدابهما ، وحفظ كثيراً من أشعارهما ، ودعته سليقته الشاعرة ، فقال بالتركية وبالفارسية كما قال بالعربية .

ولما سافر إسماعيل إلى الآستانة بعد أن تولى أريكة مصر سنة ١٨٦٣ ليقدم آى الشكر على توليته ألحق البارودى بحاشيته ، ورأى فيه ما لم يره فى غيره ، فرجع به إلى مصر .

---

(١) كان لذاته وأترابه من أبناء الذوات والحكام الجراكسة يعيرونه فيما بينهم بأمرين اثنين : أولهما انصرافه إلى الكتابة والشعر وثانيهما اندماجه فى المصرية والمصريين وهذا ما يفسر لنا وطنيته وخوضه غمار الثورة وكانت الجملة المأثورة التى يشير بها هؤلاء الذات إليه فى معرض التعبير قولهم باللغة التركية : « هم كاتب هم ابن بلد » .

وظل البارودى يرتقى فى مناصب الجيش ، وفى فرسان الحرس الخاص حتى وصل إلى رتبة « قائمقام » . وتحقق له مناه بالاشتراك فى معارك جزيرة « كريت » حين ثارت على دولة الخلافة ، فأسهم إسماعيل بجيشه فى إخماد الثورة . وقد فتنت البارودى مناظر الجزيرة ، ومناظر المعارك ، فسجل ذلك كله فى شعره .

وتقلب البارودى فى مناصب الدولة ، وكان ذا حظوة لدى إسماعيل ، فاتخذه كاتم سره ، وسافر فى رحلتين سياسيتين إلى الآستانة فى مهمة خاصة ، ومكث بجوار إسماعيل اثنتى عشرة سنة يشاركه فى حكم مصر ، وتدبير شئونها . وفى سنة ١٨٧٨ أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وأرسل إسماعيل جيشاً يعاون الخليفة فى حربه مع عدوه ، وسافر البارودى مع الجيش ، وأبلى فى المعارك بلاء حسناً ، فأنعم عليه برتبة « اللواء » وبعدة أوسمة . وكان فى ميدان القتال ، والمناظر الخلابة ، والعالم الذى رآه ما ألهب شاعريته ، فوصف المعارك والناس والمناظر بشعر أخاذ بلغ به الذروة فى الوصف ، وأخذ يهتف باسم مصر ، ويحن إلى الأهل والوطن ، فانبعث منه الشعر قوياً مليئاً بالحياة .

ثم عاد من حرب البلقان ، وهو فى الأربعين من عمره ، فعين مديراً للشرقية فمحافظاً للعاصمة .

ولما ولى توفيق العرش قرب البارودى إليه ، وولاه وزارة الأوقاف ، وأصلح فيها ما وسعه جهده . وكان فى نفس الوقت وطنياً متشبعاً بروح الإصلاح ، فحار فى أمره بين ولائه للعرش ، وبين نزعاته الإصلاحية — وهو تلميذ جمال الدين، وإن اشترك فى الوزارة التى أمرت بإبعاده عن مصر . ثم كانت حركة الجيش ، وإبعاد عثمان رفقى فتولى البارودى وزارة الحربية مع الأوقاف ، ولكن رياض باشا رأى نزعاته الشعبية فدس عليه عند توفيق فعزله ، ودفعه هذا إلى اعتزال السياسة ، والعيش بعيداً عن جو القلق والاضطراب فى الريف .

ولما اشتدت حركة الجيش عزل رياض باشا ، وتولى شريف ، ولم يقبل البارودى الاشتراك فى الوزارة إلا بعد أن ألح عليه توفيق إلحاحاً شديداً ، وأقسم له أن ليس فى نفسه شىء منه ، ولكن وزارة شريف ما لبثت أن استقالت ، فتولى البارودى رئاسة الوزارة ، وحاول أن يوفق بين الجيش والخديو ، ويصلح

الأمور بالرفق والهوادة،ولكن الأمور تعقدت أمامه بمطالبة الجيش بعزل توفيق . ونازعته نفسه يومئذ إلى المجد المؤثل وإلى مكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر فخاض الثورة مع الخائضين . بيد أن التيار كان شديداً ، وتدخلت إنجلترا وفرنسا فى الأمر ، فأحس البارودى الخطر ، وعلم أن لا قبل له بمواجهته ، فنصح لعرابى وإخوانه ، وصارحهم برأيه ، وحاول الاعتزال فى مزارعه ، ولكن هيهات وقد جرى مع الضباط شوطاً بعيداً ، وربط حظه بحظهم .

وأخفقت الثورة . ونفى مع زملائه إلى « سرنديب » ، فأقام بها سبعة عشر عاماً وبعض عام ، وظلوا سبعة أعوام فى مدينة « كولمبو » ، ولما دبت بينهم البغضاء ، وألقى كل منهم اللوم على صاحبه ، فارقهم البارودى ، وأمضى عشرة أعوام فى « كندى » ، وفيها تعلم الإنجليزية .

وفى المنفى قال القصائد الخالدة يبثها شكواه ، ويحن للوطن ، ويصف كل ما حوله ، ويراسل الأدباء ، ويتتبع أخبار بلاده ، فيرثى من مات من أهله وأحبابه وأصدقائه ، ويتذكر أيام شبابه وأويقات أنسه ، وما آل إليه حاله . ووجد فى الشعر عزاء أى عزاء ، فصار إمامه فى العالم العربى غير منازع ، ولكن طول النفى أورثه السقام والعلل ، فكف بصره ، وضعف سمعه ، ووهن جسمه ، وزاد أمره بؤساً أن الموت تخطف ابنته وزوجته وأصحابه ، فابتدأ الفناء يدب إليه . وهنالك رأى أولو الأمر أن يعود المنفيون إلى أوطانهم ، وعاد البارودى معهم « أشلاء همة فى ثياب » كما يقول . ولكن جاء وفى يمينه سفر الخلود ، وهو ذلك الشعر العلوى . وكان ذلك فى سنة ١٩٠٠ ، واستقبل مصر بقصيدته :

أبابل مرأى العين أم هذه مصر؟.. فإنى أرى فيها عيوناً هى السحر

واستقبلته مصر بكل حفاوة وترحاب ، وكانت عودته عيداً للأدب الرفيع ، وصارت داره ندوة يؤمها الأدباء والشعراء القدامى والشادون فيه .

وعكف على تنقيح ديوانه ، وحذف ما لا يروقه منه، وتدوين مختاراته ، وترتيبها ، وأخيراً فاضت روحه إلى بارئها ، وأسلم هذه الشعلة المتوهجة فى شوال سنة ١٣٢٢ هـ ، ديسمبر ١٩٠٤ م إلى الأجيال من بعده .

٢ – صورته الجسمانية والنفسية

كان البارودى فارع القامة حنطى اللون كث الشاربين عسلى العينين كستنائى الشعر وكان مظهره على الجملة يعطيك صورة فارس من فرسان العرب الأقدمين وقد رسم لنفسه هذه الصورة من الفروسية والرجولة مشفوعة بصورة الشاعر الخطيب المتكلم فى أبيات أربعة هى هذه :

أنـا مصدر الـكلم البوادى ... بـين المحـاضر والنوادى
أنـا فارس أنـا شاعـر ... فى كل ملحمـة ونـاد
فـإذا ركبت فـإنـى ... زيد الفوارس فى الجـلاد[1]
وإذا نطقـت فـإنـى ... قس بن ساعدة الإيادى[2]

شب البارودى معتداً بحسبه ونسبه ، فى عصر ساد فيه أبناء جنسه من الجراكسة والأتراك وكان البارودى يعرف هذا النسب ويعتز به فيقول :

أنا من معشر كرام على الدهـ ... ـر أفـادوه عـزة وصلاحا
عمروا الأرض مدة ثم زالوا ... مثـلما زالت القرون اجتياحا

ويقول :

نمانى إلى العلياء فرع تأثلت ... أرومته فى المجد ، وافتر سعده
وحسب الفتى مجداً إذا طلب العلا ... بما كان أوصاه أبوه وجده

ثم تزود من فنون الجندية ونشىء نشأة عسكرية ، فكان لهذه النشأة . وهذا النسب أثر عميق فى أخلاق البارودى. ولكن الزمن وصروفه قد حورت فى هذه الأخلاق، ولا سيما ما يتعلق منها بمعاملات الناس ، فأخذ يجاريهم ويداريهم ، على أن كثيراً من صفاته الطبيعية ظلت ثابتة لم تتغير حتى وفاته .

كان البارودى فى صباه متوثب العزيمة ، واسع الآمال ، عزوفاً عن الملاهى يود أن يعتلى ذروة المجد قفزاً :

---

(١) لعله يشير إلى زيد بن مهلهل المسمى زيد الخيل لكثرة خيله . وفد على النبى فسر به وسماه زيد الخير . وكان فارع الطول جميل المحيا فارساً مغواراً شجاعاً .

(٢) خطيب العرب وشاعرها يضرب المثل بفصاحته ويقال إنه أول من وقف على شرف من الأرض وخطب وأول من قال « أما بعد » .

لهجٌ بالحروب لا يألفُ الخفـض ولا يصحب الفتاة الرَّداحا (١)
مسعَر للوغى أخو غدوات تجعل الأرض مأتما وصُياحا (٢)
لا يُرى عاتباً على شيم الدهـر ، ولا عابثاً ، ولا مزّاحا
يفعل الفعلة التى تبهر النا سَ وترنو لها العيونُ طِماحا (٣)

وظلت نغمة المجد تردد على أسلة لسانه أنشودة حلوة . وكان فى نفسه شىء يود تحقيقه ، ويسعى له سعياً حثيثاً ، ولكنه لم يصرح به .

وبى ظمأ لم يبلغ الماء ريه وفى النفس أمر ليس يدركه الجهد
أود ، وما ود امرئ نافعاً له وإن كان ذا عقل ، إذا لم يكن جَد (٤)
ومـا لىَ من فقـر لدينا وإنما طلاب العلا مجد ، وإن كان لى مجد

وما أن عضته الحوادث عضة دامية ، ونكأه الزمن نكأة قاسية ، حتّى تطامن فى مطالبه وقال :

وكن وسطاً ، لا مشرئباً إلى السها ولا قانعاً ، يبغى التزلف بالصُّغر (٥)

وإذا كان فى صباه قد عزف عن النساء واللهو جداً منه وتزمتاً ، حتّى لا ينصرف عن طلب العلا ، فإنه ما لبث حين جاءه الجاه والمال حتّى غير نظرته فى الحياة ، وبات ذلك الفارس الذى يدل بشبابه وجاهه على الحسان ، ويجرى وراء اللهو ، ويتصيد مجالس الأنس والسمر ، ويقول :

ودعـنىَ من ذكر الوقار فإنـنى عـلى سرف من بغضة الحلماء
فما العيش إلا ساعة سوف تنقضى وذا الدهر فينا مولع برِمـاء

ويقول :

والْـهُ بمـا شئت قبل مندمة يكـثر فيهـا العناء والـكمد
فليس بعـد الشبـاب مقـترح ولا وراء المشيـب معتقـد

---

(١) لهج بالحروب : مغرى بها مثابر عليها ، والفتاة الرداح : المكتنزة .
(٢) مسعر للوغى : المسعر : موقد نار الحرب . والوغى الحرب .
(٣) الفعلة : بفتح الفاء العمل الحسن والجمع فعال بفتح الفاء ، وترنو : تنظر نظرة طويلة ، وطماحاً : متطلعة .
(٤) الجد : بفتح الجيم الحظ .
(٥) السها : كوكب خفى من بنات نعش .

أما الدين فله فى النفس حرمته ولكن :

إذا ما قضينا واجب الدين حقه فليس علينا فى الخلاعة من عذر

وكان كثير الفخر بالصفات الكريمة من مروءة ووداد ووفاء لا يفتأ يرددها فى شعره ، فهو وفى لأصدقائه ، لا يتغير وداده ولا يتبدل مهما جدت من ظروف :

واخــبرنى تجد صديقاً حميا لم تغــير وداده الأهــواء
صادقاً فى الذى يقول وإن ضا قت عليــه برحبهـا الدهناء[١]

وليس هذا الوداد كلمة حلوة تقال فحسب ، ولكن يجب أن يتجلى فى أعمال الإنسان :

وإن وداد القلب ما لم يكن له دليــل عــلى أخــلاقه لمريب

وكان فارساً عالى الهمة ، ذا فتوة ، وأنفة ، ونجدة ، وإباء ، وكرم فيقول :

إذا لم يكن إلا المعيشة مطلب فكل زهيد يمسك النفس جابر
من العار أن يرضى الدنية ماجد ويقبل مكذوب المنى وهو صاغر[٢]

ويقول :

إذا أنا لم أعط المكارم حقها فلا عزنى خال ، ولا ضمنى أب
خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرة علىّ يداً أغضى لها حين يغضب[٣]

ويقول :

وجد بما ملكت كفاك من نشب فالجود كالبأس يحمى العرض والنسبا[٤]
لا يقعد البطل الصنديد عن كرم من جاد بالنفس لم يبخل بما كسبا[٥]

وهو شجاع جرىء ، يتمدح بصراحته وشجاعته الأدبية والحربية ، فهو لا يعرف النفاق ، ولا يسكت عن القبيح :

أنا لا أقر على القبيح مهابة إن القــرار عــلى القبيح نفاق
قلــبى على ثقــة ، ونفسى حرة تأبى الدّنىّ ، وصارمى ذلاق[٦]

---

(١) الدهناء : الصحراء . (٢) صاغر : ذليل .
(٣) العيوف : الذى ينصرف عن الشيء وهو محتاج إليه . أغضى : طأطأ بصره .
(٤) النشب : المال الأصيل غير المستحدث . والبأس : الحر
(٥) الصنديد : الشجاع .
(٦) الصارم : السيف . الذلاق : الحاد .

فعـــلام يخشى المـــرء فرقة روحه   أوَليس عاقبة الحيـــاة فراق ؟
لا خير فى عيش الجبان يحوطه   من جانبيـــه الذل والإمـــلاق[١]
عابوا علىّ حميّتى ونـــكايتى   والنـــار ليس يعيبهـــا الإحراق[٢]

وهذه الصفات الحميدة ، وغيرها من الخلال الكريمة خليقة بأن تجعله محبوباً عند كثير من الناس ، وقد كان البارودى كذلك ، لم يتصل بشخص إلا أحبه ، وقدر فيه صفاته وفى ذلك يقول :

فأصبحت مأثور الخـــلال محبباً   إلى الناس مرضى السريرة والجهر

وقد علمته التجارب أن الصراحة ، ومواجهة الناس بعيوبهم تجلب له كثيراً من المصاعب ، وأنه يجب أن يكون حذراً لا يندفع فى صداقاته وعدواته ، وفى هذا يقول :

ودار الذى ترجو وتخشى وداده   وكن من مودات القلوب على حِذْر

ويقول :

يعيش المـــرء محبوباً إذا مـــا   نحـــا فى سيره قصـــد السداد

وإذا كانت الحياة قد علمته كيف يدارى الناس ، فقد لقنته درساً آخر ، وهو أن اللهو والمرح والحياة الصاخبة تعجل بفناء شبابه ، وتورثه السقام والعلل عاجلا ، ولذلك عدل عن هذه الحياة ، وفى هذا يقول :

ولقد جريت مع الغواية والصبا   جرى الكميت ، وللغرام سباق[٣]
ولبست هذا الدهر من أطرافه   وخلعتـــه وقميصـــه أخلاق[٤]
فإذا الشباب وديعة وإذا الفتى   هَدْى لفاغرة المنون يساق[٥]

هذه صورة سريعة لأخلاق البارودى كما وضحها فى شعره ، وهى أخلاق تبعث فى النفس الإكبار والإعجاب والمحبة .

---

(١) الإملاق : الفقر .
(٢) حميّتى : عدم رضائى بالضيم والذل . ونكايتى : قتلى للأعداء وجرحهم .
(٣) الكميت : الجواد ذو لون أحمر قان ، وهو من صفات الجودة فى الخيل .
(٤) أخلاق : بال .
(٥) هدى : ضحية ، والمنون : الموت .

٣ ـ ثقافته

أعد البارودى ليكون جنديًّا ، ولم يعد ليكون أديباً ، ولكنه حين تخرج فى المدرسة الحربية ، ووجد نفسه متعطلا ، أبت عليه نفسه الطموح أن يستمرئ اللهو والدعة ، فعكف على كتب الأولين يقرؤها بشغف ونهم ، وكانت قراءته فى كتب الأدب ، لا كتب اللغة والنحو ، يقول أستاذه وصديقه الشيخ حسين المرصفى « لم يقرأ البارودى كتاباً فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل ، وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع إلى بعض من له دراية ، وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته ، حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسبما تقتضيه المعانى ، والتعليقات المختلفة ، فصار يقرأ ، ولا يكاد يلحن . ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب ، حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ، ناقداً شريفها من خسيسها ، واقفاً على صوابها وخطئها » [١] .

والحق أن أثر القراءة والحفظ ظاهر فى شعر البارودى . ومن يطلع على « مختارات البارودى » [٢] يشهد بحسن ذوقه ، ودقة اختياره ، وتأنقه فى غذاء عقله ، كما يشهد بكثرة محفوظه . ولا نعجب بعد هذا حين نرى البارودى متملكاً ناصية اللغة يتصرف فيها تصرف الخبير بأسرارها ، المطبوع على التكلم بها . وأغلب الظن أن مختاراته لم تحو كل ما حفظ من جيد الشعر العربى ، لأننا نلمح أثراً للشعر الجاهلى والإسلامى فى شعره ، من كلمات وعبارات ومعارضات ، وتشبيهات ، مع أن مختاراته لم تحو إلا شعراً عباسياً .

كانت عند البارودى الملكة الشعرية ، والملكة وحدها لا تكفى ، بل لا بد لها من عدة تصقلها وتنميها وتعدها للبروز ناضجة قادرة خالقة . ودراسة

---

(١) « الوسيلة الأدبية » ص ٤٧٤

(٢) جمع البارودى مختاراته فى أربعة أجزاء كبيرة ، ومعظم ما فيها من الشعر لشعراء العصر العباسى .

البارودى الأدبية قد غذت هذه الملكة غذاء كاملا ، لا من دواوين الشعراء وحدهم ، بل من كتب الأدب وطرائف القصص ، وأخبار العرب وقبائلهم وشجاعتهم ، وأبطالهم ، وعدائيهم ، وأمثالهم وحكمهم ، وغير ذلك مما لا يستغنى عنه أديب . والأدلة على هذه المعرفة متوافرة فى ديوانه[1] . كانت إذاً قراءة كتب الأدب والتاريخ . وحفظ الشعر المنتقى الجيد هى عماد ثقافته الأدبية ، على أن البارودى قد اطلع على آداب أخرى غير الآداب العربية فقد مر بنا أنه حذق التركية والفارسية فى السنوات التى قضاها بوزارة الخارجية التركية ، وقال الشعر بهاتين اللغتين ، ولا يقول الشعر بلغة إلا من عرف أسرارها وتملك زمامها . كما أنه تعلم الإنجليزية وهو فى منفاه وترجم بعض آثارها . ولا شك أنه كان لهذه اللغات أثر كبير فى صقل ذوقه الأدبى ، وفى معانيه وأخيلته ، وتصويره للحوادث.

أضف إلى كل هذا ما أفاده من مدرسة جمال الدين الأفغانى ومن مدرسة الزمن ، فقد كان عصره مملوءاً بالحوادث الجسام ، فمن نهضة شاملة ، وخلق لأمة متمدينة . ومن توليه أرقى المناصب فى هذه الدولة — إلى ثورات وفتن وحروب ومعارك ، ونفى وتشريد . وقد سافر مراراً إلى ميادين القتال فى خارج مصر ، ورأى عالماً لم يعرفه من قبل ، ومناظر جديدة ، فتأثر بكل هذا ، وانفعلت له نفسه ، ونفثه شعراً جديداً فيه حيوية وفيه قوة .

وإذا أضيف إلى كل هذا موهبة عظيمة ، ووراثة فى قول الشعر كما أخبرنا البارودى :

أنا فى الشعر عريق ... لم أرثه عن كلاله
كان إبراهيم خالى ... فيه مشهور المقاله

زالت دهشتنا لتلك المكانة التى احتلها البارودى فى عالم الشعر .

٤ — علاقة البارودى بعصره

كان البارودى من صنع عصره وكان هو كذلك من صانعى عصره فقد

---

(١) لقد سقنا شواهد على سعة اطلاعه فى كتب الأدب فى كتابنا « فى الأدب الحديث ج ١ » ص ١٥٧ — ١٥٨

نشأته الجندية فارساً بطلا فاستخدم فروسيته وبطولته فى الحوادث التى أملى الدهر على مصر أن تشارك فيها . ونشأته السياسية من جهة وتأثير جمال الدين من جهة أخرى عيوفاً وطنياً حراً أبياً واستجابت طبيعة نفسه لهذه الأخلاق السامية فكان له فى هذا كله المواقف المحمودة وانعكس أثر ذلك على أعماله وأشعاره كما انعكست عليها صور المجتمع الذى عاش فيه .

اهتم الكتاب والشعراء بمصير بلادهم ، وما يحوكه لهم الأجانب من مكايد ، وما يدبره المستعمرون من مؤامرات ، فأثاروا الحمية فى نفوس الشعوب المظلومة المستذلة التى غلبت على أمرها وقادها ملوكها وأمراؤها وزعماؤها إلى الدمار والبوار ، فى حين أن العدو يتربص بهم الدوائر . فوقف هذا الأدب يصرخ فى هذه الأمم صرخات مدوية علها تفيق من سباتها ، وتنهض لمحاربة عدوها ، وتتنبه إلى الختل والغيلة ، والغدر والحيلة وشتى الوسائل الزائفة التى عمد لها الطامع الجشع من وعود مصيرها الخلف ، ومواثيق غايتها النقض ، وأيمان يتبعها الحنث .

فى هذا العصر الذى نهضت فيه مصر ، وأخذت بأسباب التقدم والحرية ، وعملت على تحطيم أغلال الماضى ، والقضاء على مساوئه ، ومقاومة الحكام الفاسدين والحد من بطشهم وسلطانهم — عاش البارودى ، يجد أمامه نهضة قوية فى التعليم ، ومكتبات عامة تيسر العلم للراغبين فيه ، وصحفاً تنبه الأذهان ، وتعالج شتى المشكلات الشعبية ، ومطابع تعمل على إحياء التراث القديم ، وعلماء ينقلون إلى العربية كنوز الغرب ، وحلقات علمية منظمة توجه الفكر إلى الإصلاح العام الشامل . ولا شك أن البارودى قد أفاد من كل هذا وساعدته هذه النهضة على أن يتبوأ تلك المكانة الفريدة فى عالم الأدب والشعر ، فإن الشخصية التاريخية مهما عظمت وامتازت بعبقرية نادرة تدين بجزء من مكانتها إلى البيئة التى عاشت فيها ، فالكائن المستقل عما قبله وما بعده ، والذى لا يتأثر بشىء مما حوله ، ولا يتأثر بشىء مما سبقه أو أحاط به لا عهد للعالم به حتى اليوم ، فالمصادفة محال ، ولا يوجد فى هذا العالم شىء إلا وهو نتيجة من جهة وعلة من جهة أخرى ، نتيجة لعلة سابقة ، وعلة لأثر يتلوه .

الفصل الثالث

جوانب البارودى

١ ـ آثاره

١ ــ خلف البارودى لنا ديواناً ضخماً من الشعر ، عكف على تنقيحه وترتيبه ، ومراجعته وشرح غريبه ، والتعليق عليه قبل وفاته ، وقد قامت زوجته[1] بالإنفاق على طبعه ، ولكن لم يطبع منه أول الأمر إلا جزءان انتهيا إلى أول قافية الميم .

ثم فكرت وزارة المعارف فى طبعه فكلفت السيدين على الجارم ، ومحمد شفيق معروف بشرح غريبه ، وضبطه ، وتصحيحه وقد صدر من هذه الطبعة جزءان كذلك أولهما فى سنة ١٩٤٠ ، وثانيهما فى سنة ١٩٤٢ ، وقد وصلا إلى قافية الكاف ولا تزال بقية شعر البارودى فى حاجة إلى الإخراج والطبع . ومن المؤسف أن يتقاعس أدباء مصر عن أداء هذا الواجب لباعث الشعر العربى من جدثه .

٢ ــ خلف البارودى كذلك مختارات من الشعر فى أربعة أجزاء كبيرة اختارها من عيون الشعر العباسى لثلاثين شاعراً من أكابر الشعراء أمثال بشار ، وأبى نواس ، ومسلم بن الوليد ، والعباس بن الأحنف ، وابن المعتز ، وأبى العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس ، والبحترى ، وأبى تمام ، وأبى فراس ، ومهيار الديلمى ، والمتنبى ، وأبى العلاء ، والأرجانى ، والأبيوردى وغيرهم .

وقد شرحها البارودى وعلق عليها . وقامت زوجته بطبعها على نفقتها بعد

---

(١) هى زوجته الثانية السيدة أمينة هانم سامى تزوجها فى المنفى وهى كريمة يعقوب باشا سامى أحد الوزراء والثوار العرابيين فقد نفى مع من نفى إلى سيلان وأدركته المنية فى خلال سنوات النفى فدفن هناك .

وفاته تخليداً لذكراه . وهذه المختارات تدل على حسن ذوق ، وبصر بجيد الشعر كما يدل تعليقه عليها على سعة اطلاع ، وغزارة مادة .

٣ ــ ويظهر أن البارودى خلف مختارات فى النثر سماها « قيد الأوابد » جمع فيها عيون الرسائل والخطب والتوقيعات . بيد أن هذه المجموعة للأسف لم تر النور حتى اليوم ، ولا تزال فى حاجة إلى من يبعثها إلى الحياة .

٤ ــ هذا وللبارودى رسائل نثرية طريفة مثل تلك التى وصف فيها رحلته إلى المنفى ، ومثل مقدمة ديوانه . ولكن نثره يغلب عليه السجع والتكلف ، والغرام بالاستعارات والمحسنات ، فلم يحرره من قيوده وأغلاله كما حرر شعره وتجد نماذج من هذا النثر فى أول ديوانه .

على أن الطابع العام الذى يستخلص من آثار البارودى هو أنه الشاعر الغريد صدح وشدا وسجل له الدهر جميل الصداح وشجى النغم .

٢ ــ مذهبه الشعرى

كان الشعر فى أخريات عصر المماليك يلفظ أنفاسه الأخيرة فلما أفاقت مصر على فجر النهضة الشاملة تردد الشعر بين المرض والعافية فكان يصح أحياناً وينتكس أحياناً كثيرة ، وهو فى حالة الصحة لا يبلغ مبلغ القوة والجزالة [١] كل هذا والنهضة ماضية فى طريقها ، واللغة تدب فيها القوة شيئاً فشيئاً ، والمطابع تدفع بالكتب الأدبية القديمة ، والمدارس تبدد سدف الجهل والظلام ، والصحافة تكشف الطريق ، وتزيل ما به من أوضار وعوائق . ولكن الشعر ظل على حاله من الضعف لم يقف على قدميه بعد ، وكان مكبلا بقيود ثقيلة ، يتمثل فى شعر الندماء أمثال على أبى النصر ، وعلى الليثى . ولكن شاء الله أن يبعث من ينهضه من كبوته ، ويقيله من عثرته ، ويلقى بهذه الآفات والأوضار بعيداً ، ويعيد للشعر قوته ومجده ، وكان ذلك على يد البارودى .

---

(١) يتمثل هذا فى شعر صفوت الساعاتى وقد ترجمنا له فى كتابنا « فى الأدب الحديث ج ١ » .

سلك البارودى فى ثقافته الأدبية ، وشَحَذَ ملكته الشعرية الطريق الطبيعى ، وذلك بحفظ الجيد من كلام العرب ، واستظهار حكمهم وأمثالهم ، ودراسة تاريخهم وعاداتهم ، فلا عجب أن جاء مذهبه الشعرى متأثراً بمذهبهم فهو يرى « أن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها فى سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب ، فيفيض بلألائها نوراً يتصل خيطه بأسلة اللسان ، فينبعث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ، ويهتدى بدليلها السالك ، وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه ، وائتلقت معانيه ، وكان قريب المأخذ ، بعيد المرمى ، سليماً من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفكرة ، فهذه صفة الشعر الجيد ، فمن آتاه الله منه حظاً ، وكان كريم الشمائل ، طاهر النفس ، فقد ملك أعنة القلوب ، ونال مودة النفوس ، ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام ، وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق لكان قد بلغ الغاية التى ليس وراءها لذى رغبة مسرح ، وارتبأ [١] الصهوة التى ليس دونها لذى همة مطمع » [٢] .

وتعريف البارودى للشعر غامض ؛ لأنه لفه فى ثوب كثيف مزخرف بالمجازات والاستعارات ، ولم يحدده تحديداً علمياً ، وهو يعنى أنه خطرة ذهنية ينفعل لها الفؤاد ، فيتحرك اللسان معبراً عن خلجاته ، والخطرة الذهنية تأتى مثلا من نظرة إلى شيء جميل ، أو شيء يبعث الرثاء والأسى ، وقد تكون خطرة ذهنية مجردة عن الأثر الخارجى ، وهذا التعريف يتمشى مع مذهب العرب فى الشعر وهو أنه (لمعة خيالية) تومض له إيماضاً ، فتأتى هذه الخطرات الخيالية غير متصلة ، وغير مرتبط بعضها ببعض فى حلقة متماسكة ، أو قصة محبوكة الأطراف أو خيال ممتد طويل فى ملحمة من الملاحم أو مسرحية من المسرحيات تتتابع حوادثها ، وإنما هى ومضات تتألق تألقاً ، فيتضح المعنى الجزئى تمام الوضوح فى بيت أو أبيات ضمن قصيدة لا تربطها وحدة فكرية [٣] .

---

(١) ارتبأ : اعتلى .　　(٢) مقدمة ديوان البارودى من إنشائه .

(٣) لقد ناقشنا هذا المذهب وبينا محاسنه وما يؤخذ عليها ، ودافعنا عن وجهة نظر العرب فى الشعر وذلك فى كتابنا « النابغة الذبيانى ، الفصل الثانى » وراجع
Modern Trends In Islam, by Gibb. p. 6—11

والشعر الجيد فى رأى البارودى « ما كان قريب المأخذ ، سليماً من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفكر » وهذه صفة الشعر الغنائى ، وهى سمة الشعر العربى غالباً ، ليس فيه تعقيد الفكرة ، وحشد القضايا المنطقية ، والفكر المجرد عن الشعور والإحساس والمعانى المتوغلة فى العمق ، والآراء الفلسفية ، كما نرى ذلك أحياناً عند أبى تمام والمتنبى ، وأبى العلاء كثيراً ، وكما نراه مذهباً من مذاهب بعض شعرائنا فى العصر الحاضر. والشعر — فى الحق — ليس فلسفة ولا منطقاً ، وحسب الشعر أنه ينادى القلوب ، ويهز العاطفة ، وتطرب له النفس وليس معنى ذلك أن يكون الشعر أجوف خالياً من المعانى ، وإلا كان هراء .

ويرى البارودى أن وظيفة الشعر هى « تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام ، وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق» . وقد ردد هذه المعانى فى شعره . بيد أن الشعر قد لا يؤدى وظيفة ما إلا التعبير عن شعور الشاعر ، ثم إن البارودى لم يفطن إلى كل أغراض الشعر ، وما يمكن أن يستخدم فيه ، ولكننا لسنا بصدد هذه الأبحاث الآن ، وبحسبنا أن نقرر هنا أن البارودى فى هذا التعريف الموجز يعبّر عن مذهبه الشعرى ، وقد راعاه إلى حد ما فى ديوانه ، ولم يخرج عنه إلا قليلا .

وعلى الرغم من أن البارودى كان مطبوعاً على قول الشعر ، لا ينتزعه انتزاعاً ، ولا يتعسف فى نظمه ، بل يتدفق على لسانه تدفقاً ، وتشعر وأنت تقرؤه أنه يجرى فى رفق وهوادة ولين ، غير قلق ، أو مضطرب ، أو متكلف ، فإن البارودى كان من المؤمنين بأن الفن تهذيب وصقل ، وجهد متصل ، وتحسين مستمر ، وأن الطبع وحده لا يكفى ؛ ولذلك كان يتعهد شعره بالتهذيب والرعاية . فقد روى أنه رتب ديوانه عقب عودته من المنفى ، وأعاد النظر فيما قاله من القصائد ، وحذف الأبيات التى لم ترقه حتى لا يخلف للأجيال القادمة إلا الشعر المصقول لفظاً ومعنى :

لم تبن قافيــــة فيه على خلل ... كلا ؛ ولم تختلف فى وصفها الجمل
فلا سناد ، ولا حشو ولا قلق ... ولا سقوط ، ولا سهو ، ولا علل[1]

---

(١) السناد عيب من عيوب الشعر يطرأ على ما قبل الروى وهو خمسة أنواع : منها اختلاف الردفين فى القافية مثل « عين بكسر العين ، وجين » إذا جاءتا قافيتين فى بيتين متتاليين .

لا تنكر الكاعب الحسناء منطقه ولا يعاد على قوم فيبتذل

وكان يهتف بشعره قبل أن يخرجه للناس ، ويصغى إليه ليتبين ما فيه من عيوب الموسيقى ، وانسجام الألفاظ بعضها مع بعض ، والخلل المعنوى ، والقافية القلقة ، والحشو ، وغير ذلك من عيوب الشعر ، فيقول :

واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب إلى الـــرامى(١)

فجاء شعره — والحق يقال — شعراً يأخذ بمجامع القلوب من حيث موسيقاه ، وتماسك أبياته ، وقوافيه ، وانسجام ألفاظه ، وانتقاؤها انتقاء خبير ملهم ، حتى صار كما قال :

يزيد على الإنشاد حسناً كأننى نفثت به سحراً ، وليس به سحر

وكان البارودى يتخير الألفاظ المناسبة للمعانى ، فيرق ويلطف فى مقام الرقة واللطف كأن يتغزل أو يعتب ، أو يصف منظراً جميلا ، أو مجلس أنس وسمر ، ويجزل شعره ويجلجل لفظه ويشتد أسره حين ينشد فى الحماسة والفخر والمديح ، وحين يصف البحر الهائج ، والريح الزفوف ، والحرب الضروس :

إذا اشتد أورى زندة الحرب لفظه وإن رق أزرى بالعقود فريده

إذا ما تلاه منشد فى مقامة كفى القوم ترجيع الغنـــاء نشيده

فجاء شعره مما يلذ للإنسان أن ينشده بصوت مرتفع ، يترنم به ليطرب ، ويتأمل فى نغمه وموسيقاه فيلتذ ويعجب ، فلا بدع أن قال :

ولى كل ملساء المتون غريبة إذا أنشدت أفضت لذكر بنى سعد(٢)

أخف على الأسماع من نغم الحدا وألطف عند النفس من زمن الورد

---

(١) فى هذا المعنى قال بعض الشعراء المتقدمين :

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تبالغ قبل فى تهذيبها

فإذا عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوساً تهذى بها

وفى مثل هذا المعنى قال « بوالو Boileau » الناقد الفرنسى المشهور فى كتابه « فن الشعر » فقد قال :

Vingt fois sur le métier, remettez votre ouvrage,
Polissez-le sans cesse, et le repolissez.

(٢) بنو سعد : بطن من هوازن ، ومنهم حليمة السعدية مرضعة النبى عليه السلام ، وكان بنو سعد من أفصح العرب ، ولذلك أرسل النبى إليهم كى ينشأ على الفصاحة واللسن ، ويريد البارودى أن شعره يذكر الناس بأفصح العرب .

وعلى الرغم من كل هذه العناية ، والتهذيب والصقل ، فإن شعر البارودى لم يسلم من هنات ، بيد أنها لا تزرى به ولا تغض من شأنه . وإذا تتبعنا آثار البارودى وطبقنا عليها مذهبه الشعرى بدا لنا فى شخصيتين اثنتين : شخصية الشاعر المقلد وشخصية الشاعر المجدد .

٣ ــ الشاعر المقلد

ا ــ الوقوف على الأطلال

وقف البارودى على الأطلال والدمن . وأتى بشعر جاهلى الروح والمعنى ، والوجه والزى ، لا يمت إلى عصره وعصر الحضارة بصلة ، وهو لم يقله لأنه مقتنع بأن ذلك هو الأسلوب الواجب اتباعه ، والنهج الذى عليه أن يسلكه ، ولكنه يريد أن يمتحن شاعريته وهل فى استطاعته أن يحاكى القدماء حتى فى وقوفهم على الأطلال والدمن ، وكان يعبر عن ذلك بأنه من رياضة القول ، ولا شك أن هذا النوع من الشعر خال من العاطفة وفيه كثير من الصنعة والتكلف ، فلم يكن أمام البارودى أطلال ودمن تهيج شاعريته ، وتثير عبرته ، استمع إليه يقول :

ألا حى من أسماء رسم المنازل ... وإن هى لم ترجع بياناً لسائل
خلاء تعفتها الروامس والتقت ... عليها أهاضيب الغيوم الحوافل[1]
فلأيا عرفت الدار بعد ترسم ... أرانى بها ما كان بالأمس شاغلى

إلى أن يقول :

فيا ليت أن العهد باق وأننا ... دوارج فى غفل من العيش خامل
تمر بنا رعيان كل قبيلة ... فما يمنحونا غير نظرة غافل
صغيرين لم يذهب بنا الظن مذهبا ... بعيداً ، ولم يسمع لنا بطوائل[2]
نسير إذا ما القوم ساروا غدية ... إلى كل بهم راتعات وجامل[3]

فأى أطلال وأى رسوم رآها البارودى فوقف عندها ؟ وأين مرت بهما رعيان

---

(١) تعفتها : طمستها ، والروامس : الرياح الطوامس للآثار ، والحوافل : جمع حافلة وهى السحابة الممتلئة بالمطر .

(٢) الطوائل : جمع طائلة وهى الوتر والثأر ، والمعنى : لم نقترف إثماً .

(٣) البهم : جمع بهمة وهى صغار المعز والضأن ، والجامل : الإبل .

القبائل ؟ وما هذه البهم والجمال السائمة ؟ اللهم . إنه التقليد ورياضة القول ، وإظهار المقدرة على النظم فى مثل هذه الأغراض التى قال فيها القدماء أساتذة البارودى .

ب — النسيب

ونراه فى النسيب ووصف المرأة يعمد إلى التشبيهات القديمة المحفوظة ، فهى تحكى الظبى فى كناسه (١) ، والبدر فى سمائه ، وهى مهاة ، وألحاظها سيوف باترات ، وقدها غصن يتثنى إلى آخر هذه القوالب الموروثه .

غصن بان قد أطلع الحسن فيه　　بيـد السحر جلّنـاراً وورداً
ما هلال السماء ؟ ما الظبى ؟ ما الور　　د جنياً ؟ ما الغصن إذ يتهدى
هى أبهى وجهاً ، وأقتل ألحا　　ظاً ، وأندى خداً ، وألين قدا

حـ — شعر الصنعة

وقد قلد البارودى شعراء الصنعة ، وعصور الضعف ، فيقول مؤرخاً فى شعره كما أرخوا — ولكن هذا قليل جداً فى شعره من مثل قوله يؤرخ عودة الخديو إسماعيل من دار الخلافة سنة ١٢٨٩ هـ .

رجع الخديو لمصره　　وأتت طلائع نصره
وتهـللت بقـدومـه　　فـرحاً أسرّة عصره
فلتبتهـج أوطـانه　　بحـلوله فى قصره
وليشتهـر تاريخـه　　رجـع الخديـو لمصره

١٢٨٩ هـ

واستعمل المحسنات البديعية أحياناً ولا سيما الطباق ، وإن لم يسرف فيها ، ولم تأت إلا عرضاً من مثل قوله :

يموت قلبى ويحيا حيرة وهدى　　فى عالم الوجد إن صدت وإن جنحت

---

(١) كناس الظبى : بيته .

د ــ المعانى والأغراض

سار البارودى فى أول أمره مقلداً للشعر القديم ، محاكياً له ، معارضاً أشهر قصائده ، متشبعاً بمعانيه وأخيلته ، مترسماً أغراضه من مدح ، ووصف ، وهجاء ، ورثاء ، وعتاب وفخر . . . إلخ . وقد حاكى القدماء فى أسلوبهم ، وبداوتهم ، وذكر ديارهم من مثل قوله :

يا سعد قل لى فأنت أدرى ... متى رِعان العقيق تبدو(١)
أشتاق نجداً وساكنيه ... وأين منى الغداة نجد

وقال ــ مع أنه يعيش فى مصر بعيداً عن نجد ، ووادى الغضا :

أين ليالينا بوادى الغضا ... ذاك عهد ليته ما انقضى(٢)
كنت به من عيشتى راضياً ... حتى إذا ولى عدمت الرضا
أيام لهو وصبا كلما ... ذكرتها ضاق على الفضا

وهو مقلد فى المعانى كما هو مقلد فى الشكل والقالب ، ولا نستطيع أن نحصى معانيه القديمة لكثرتها ، ولكنى سأدل على نوعها ببعض الأمثلة كقوله فى الغزل معارضاً قصيدة أبى فراس الحمدانى التى مطلعها :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهى عليك ولا أمر

فيقول البارودى :

طربت وعادتنى المَخِيلةُ والسكر ... وأصبحت لا يلوى بشيمتىَ الزجر(٣)
كأنىَ مخمور سرت بلسانه ... معتقة مما يضن بها التَّجْر
صريع هوى يلوى بىَ الشوق كلما ... تلألأ برق أو سرت ديم غـر(٤)
إذا مال ميزان النهار رأيتنى ... على حسرات لا يقاومها صبر

---

(١) العقيق : الوادى ، وكل مسيل شقه ماء السيل ، ومواضع بالمدينة والطائف واليمامة ونجد ، والمقصود هنا عقيق نجد . ورعان : جمع رعن (بفتح فسكون) وهو أنف يتقدم الجبل.

(٢) الغضا : شجر ، وخشبه من أصلب الخشب جمع غضاة ، ووادى الغضا بنجد.

(٣) المخيلة : الظن ، والمراد ذكريات الماضى ، ويلوى به : يذهب به .

(٤) الديم : جمع ديمة وهى السحابة التى يدوم مطرها .

يقول أناس إنه السحر ضَــلَّةً   وما هى إلا نظرة دونهـــا السحر (١)

ويقول مفتخراً من نفس القصيدة :

لهم عُمُــدٌ مرفوعــة ومعـــاقل   وألويـــة حمــر وأفنيـــة خضر
ونـــارٌ لهـــا فى كل شرق ومغرب   لمــدرع الظلمـــاء ألسنة حمــر

ويقول من الحكمة :

لعمرك ما حى وإن طال سيره   يُعَدُّ طليقاً والمنون له أسر
وما هذه الأيام إلا منازل   يحــل بها سَفْرٌ ويتركها سفر (٢)

فهذه أغراض ثلاثة فى قصيدة واحدة ، لم يأت فيها بجديد من المعنى ، ففى الغزل يقول : إنه استخفه الطرب والشوق على حد قول أبى نواس :

حامل الهوى تعب   يستخفــه الطــرب

وحاكى الأقدمين فى ذكره البرق والسحب ، فهذه الأشياء كانت مقبولة فى الشعر القديم لأنها تصف البيئة العربية ، وكان فى البرق والغيث حياة العرب القاطنين بالجزيرة ، فإذا لمع البرق ، أو هطات السحب هلل الناس وفرحوا ، وإذا ذكر المحب محبوبته فى تلك الآونة ، فكأنه يريد أن يشاركها فى سرورها أو تشاركه فى سروره ، والسرور من الأشياء التى لا تتم إلا بالمشاركة ولا سيما مع الأحباب . أما فى بيئة البارودى فلا معنى للبرق ،ولا للسحب ، والنيل يجرى بمصر والمطر فيها ليس عماد الحياة .

وقوله « على حسرات » ؛ يعنى أنه حين تغيب الشمس تكثر همومه ، وكأنه يتقلب على حسرات ، وما أكثر ما قال العرب فى هذا المعنى ، وقديماً قال النابغة :

فبت كأن العائدات فرشن لى   هَرَاساً به يُعْلَى فراشى ويُقشب (٣)

وتشبيه نظرات المحبوبة بالسحر تشبيه قديم ، أما الفخر فقد ذكر البارودى العمد المرفوعة وهو فى القاهرة ، ويذكر النار على عادات البدو فى جلب الضيفان . ونراه فى الحكمة يقول : إن الإنسان لا يعد طليقاً فى حياته وهو فى أسر المنون وهذا مأخوذ ،من قول طرفة بن العبد :

---

(١) ضلة : أى ضلالا منهم فى زعمهم هذا .
(٢) السفر : جماعة المسافرين .
(٣) الهراس : الشوك . ويقشب : يجدد .

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد[1]

وشتان ما بين البيتين ، فبيت طرفة أمتن . وأما أن الأيام منازل وأنا فيها على سفر فمعنى قديم مطروق ، وقد تكرر فى أقوال الزهاد والوعاظ .

هـ ـ الرثاء

ولم يرث البارودى إلا صديقاً أو قريباً . فلم يكن رثاؤه مفتعلا أو من شعر المناسبات ، وإنما كان منبعثاً عن عاطفة صادقة ، وقد تمثل فى رثائه كل ما يخطر ببال الراثى : من تفجع ، وشكوى من الزمن والحياة وسخط عليهما وإظهار لمحاسن المرثى ، وبعض الحكم يتأسى بها الشاعر أو يعظ غيره ، ويقدم العزاء أحياناً لأهل الميت : وإن لم يلجأ البارودى إلى الوقوف على سر الحياة الأخرى ، وأن يستشف ما بعد الموت كما كان يفعل شوقى .

وقد يأتى البارودى ببعض المعانى القديمة فى قصائد الرثاء كأن يدعو الله أن ينزل الغيث على قبر الميت ، وما شابه ذلك من الصِّيَغ التقليدية المعروفة . وهو يظهر الجزع والحزن الشديد دون مبالغة جارفة فى النعوت التى يضفيها على الميت . وجزعه وحزنه يدلان على عاطفة مشبوبة ، وقلب وفى ، ومما زاد رثاءه حرارة أنه قال معظمه وهو فى المنفى فزاد فى أساه لوعة النوى عن الوطن ، وحرمانه التزود من الميت بنظرة أو حديث ، ويدعو هذا إلى توجيه الكلام للشامتين به فى نكبته ومحنته ، ويظهر لهم التجلد فى أخريات قصائده ، وأنه لا يزال صلب العود ، ولا سيما إذا كان الميت من ذوى قرابته .

وإذا استعرضت مراثيه وجدته رثى أصدقاءه الأدباء الذين كانت بينه وبينهم آصرة محبة ووداد ، وتقدير ، وتفاهم ، مثل أحمد فارس الشدياق وعبد الله فكرى وحسين المرصفى ووجدته رثى : بنته ، وزوجه ، ورثى والده ، وإن كان قد توفى وهو صبى ، ولذلك جاء رثاؤه لوالده خالياً من العاطفة فيه كثير من الفخر ، وليس فيه تفجع الحزين ، ولا حسرات الفراق ، وبه كثير من المبالغات غير المقبولة .

---

(١) الطول : الحبل

و ـــ المدح

واقتصر في مدحه على ولاة مصر في عهده : إسماعيل ، وتوفيق ، وعباس الثاني ، وهو في مدحه لا ينسى مصر ، وموقف الوالى منها ، وما قدم لها ، أو ما يرجى على يديه من خيرات لمواطنيه ، فيمدح توفيقاً لأخذه بالشورى والعدل ، ويستطرد إلى مدح نظام الشورى ، وأنه من تعاليم الإسلام ، وأن الأمة التي لا تأخذ به مصيرها إلى الانهيار ، والملك الذى لا يتبعه ملك غير عادل . وملكه سرعان ما يدب إليه الضعف . وهو في مدحه يذكر عدله وأريحيته وما يرجى على يديه من نفع ، وقد مدح عباساً لأنه عفا عنه وأعاده إلى وطنه . أما إسماعيل فقد مدحه حين ولى على أريكة مصر ، وبشر البلاد بعهد جديد وقدم نفسه لإسماعيل وأطراها ، وأظهر استعداده لخدمته ، وخدمة وطنه . هذا ولم يغفل أن يثنى على كل ممدوحيه ، وينعتهم بكرم الأصل وحب الخير والعدل إلى آخر هذه الصفات المعروفة والمعانى المطروقة .

ولم يكن البارودى شاعراً مداحاً متكسباً بشعره ، كما درج على هذه العادة الشعراء في الأدب العربى ، ولكنه كان أميراً فارساً عفيفاً يقول الشعر للتعبير عن خلجات فؤاده . وهو إذا مدح لم يقصد بمدحه العطاء ، وإنما للتعريف بمنزلته ، أو الشكر على يد أسديت إليه ، أو حث على مكرمة . ومديحه خال من المبالغات المذمومة ، والنعوت الموهومة ، وهذا طبيعى ! لأنه لم يقصد بمدحه صلة أو عطية ؛ لأن الشعراء إنما لجئوا إلى هذه المبالغات ظناً منهم أنها تزيد في عطائهم . وأن نفس الممدوح تسر لها ، فيغدق عليهم جزيل الهبات . ومع كل فمدائح البارودى قليلة جداً ــ إذا قيست بشعره كله.

ز ـــ الفخر

وقد افتخر البارودى كما عرفت بنفسه ، وحسبه ، وافتخر كذلك بشجاعته وفروسيته ، وقد أكثر من القول في هذا المعنى ، وله فيه مبالغات سخيفة ويبين فيه أنه محسود المكانة ، وأنه فريد عصره ، وواحد دهره .

ح – الزهد

ولعل قوله فى الزهد يرجع إلى تلك الحالات النفسية التى غلبه فيها اليأس على أمره ، وهو وحيد شريد يعانى غصص الفراق والنفى ؛ وإلا فهذه النفس الطموح التى خاطرت وغامرت وتطلعت إلى الملك وتلذذت وتنعمت بالحياة كانت بعيدة عن الزهد فى الحياة ، ولعلها لم تزهد إلا مرغمة . وعلى كل فما قاله فى الزهد قليل مما يدل على أنه أثر لنوبات كانت تعتريه ، فيتشاءم من الدنيا ، ويتذكر الموت والموت يذكره بالعمل الصالح والإقلاع عن الغواية والجهل ، ويذكره بمن ماتوا قبله من ملوك وأمراء وأصحاب عروش وضياع ، ذهبوا وذهبت دنياهم الحافلة باللذات ، وعمرت منهم القبور ، ولم يذُد عنهم الموت مالهم ولا جاههم ... إلخ هذه المعانى التى استنفدها من قبل أبو العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس وأضرابهما .

ومما يتصل بهذا الموضوع مدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد مدحه بقصيدة طويلة يتوسل فيها بجاهه ، ويطلب شفاعته ، ويرجو الرحمة والمغفرة من الله بسببه .

ط – الحكمة

وقد أكثر البارودى من قول الحكم ، ومعظمها حكم غير مبتكرة ، وقع عليها السابقون ، وصاغها البارودى صياغة جديدة بأسلوبه الجزل الفخم ، وقد وردت له كثير من الأبيات السائرة حتى صارت أمثالا كقوله :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محبب

وقوله :

وقليلا ما يصلح المرء للمجد إذا كان ساقط الأجداد

وقوله :

إذا ساء صنع المرء ساءت حياته فما لصروف الدهر يوسعها سبا

وحكمه على العموم قريبة المأخذ ، ليست فيها فلسفة عميقة ، ولا تدل على مذهب

فى الحياة ، ومصيرها ومصدرها ، أو على نظرة عامة شاملة للكون وإنما هى نظرات عابرة ليس فيها تحليل دقيق ، ولا سبر لأغوار الحياة والمجتمع ونفسيته ، ولكنها حلوة الصياغة خفيفة على الألسنة ، متقنة السبك .

٤ ــ الشاعر المجدد

ا ــ الوصف

على أن كل هذا لا يعنى أن شعر البارودى كله تقليد للقدماء فى أغراضهم ومعانيهم وأخيلتهم ، فالبارودى قلد القدماء أولا ثم استقلت شخصيته عنهم فى كثير من المواطن ، واتضحت هذه الشخصية ممثلة عصرها ، وحياة صاحبها ، فقد ذاق البارودى حلو الزمان ومره ، وارتفع فى مناصب الدولة حتى رئاسة الوزارة ، ثم شرد ونفى ، وقضى زمناً طويلا يتحرق فيه شوقاً إلى وطنه وأهله ، ويتحسر على أيامه الخاليات ، ويندب فيه حظه ، وينعى على الأصدقاء الكاذبين خياناتهم ، ويذم الحياة ويكيل لها السباب . وهو فى كل هذا صادق الشعور يصف ما به على طبيعته ، فبرزت شخصيته واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

وللبارودى تجديد ملموس فى التعبير عن شعوره ، ومشاهداته ، وله معان جديدة، وصور لم يسبق إليها ، فالبارودى عنى بالوصف عناية فائقة حتى أفرد له قصائد بعينها . ولقد كان الوصف من الأغراض القديمة ، ولكن كان يأتى عرضاً فى ثنايا القصائد . أما البارودى فكان يصف لمجرد الوصف ، ولأن شاعريته ، وحواسه المرهفة ، وتذوقه للجمال كانت تدفعه إلى قول الشعر ، وإلى وصف مشاهداته ، لا كما هى فى الطبيعة ، ولكن يخرجها ملونة بشخصيته وشعوره وأفكاره .

كان البارودى مفتوناً بالطبيعة ، يرى فى كل سطر من شعرها الخالد آية من آيات الجمال عليه أن يترنم بها ويظهر محاسنها للأجيال من بعده ، ويترجمها للناس حتى يعجبوا بها كما أعجب ، وديوانه يغص بالموصوفات .

ويعد البارودى من أكثر شعراء العربية وصفاً، بل يعد فى الطليعة، فوصف مظاهر الطبيعة كلها : الليلة العاصفة، والريح الزفوف ، والسماء الحالية بالنجوم، والبحر الهائج الغاضب ، والجبل والغابة ، والريف الهادىء الوادع ، والزرع النضير ، والنيل ، والساقية ، والطيور المزقزقة . . . إلخ .

والبارودى فى وصف الطبيعة مصور ماهر ، دقيق فى كل ما يتناول من وصف ، ولكنه لا يندمج مع الطبيعة ويستنطقها ، ويعيد إليها الحياة ، بل يقتصر على نقلها إلينا ملونة بشعوره ، فى خطوط واضحة سريعة ، لا تعمق فيها أو طويل وقوف على المشاهدات . ومعانيه قريبة ، وخياله دان لا إغراب فيه ولا شرود ، كل هذا فى دقة حس ، وتدفق شعور .

وقد تميز البارودى فى وصف الأشخاص ، وهذا من الموضوعات النادرة التى مهر فيها قلة من فحول الشعراء كابن الرومى ، وقد أجاد كذلك فى وصف المعارك حتى كأنك تشهدها . ولم يقتصر وصفه على الطبيعة بل وصف كل ما حرك شاعريته . وصف السجن الذى عانى منه ما عانى ، ووصف القطار ووصف الأهرام وأبا الهول وفتح بذلك الطريق لمن أتى بعده كشوقى وغيره ، وهو وإن لم يتعمق فى وصفه ، ويستعرض التاريخ المجيد كما فعل شوقى من بعده ، إلا أنه برهن على أنه شاعر يرى الجمال أو العظة فى كل ما حوله من مناظر ، وأن شاعريته حساسة مرهفة ؛ لأن مثل هذا الوصف لا تحفزه إليه رغبة فى صلة ، أو تقرب من أمير ، وإنما هو إشباع لرغبة فنية تجيش فى صدره ، وتحاول شاعريته الإفصاح عنها . ولذلك عد باب الوصف من خير أبواب الشعر ؛ لأنه فضلا عن نشره ما طوى من آيات الجمال ، أو ما خفى على عيون الناس منها ، فإنه يدل على نفسية الشاعر ، وقدرته وخياله ، وهو خير محك للتمييز بين الشعراء .

وإذا كان ثمة مأخذ على موصوفات البارودى فإنها لم تتعد المحسوسات ، ولم يعن بالمعنويات ، وقد اهتم بالمرئيات خاصة .

ب ــ الشعر السياسى

ومن الأغراض القديمة التى خلع عليها البارودى لباس الجدة ، وظهرت فيها

شخصيته واضحة جلية ، تفصح عن نفس أبية متمردة على الظلم والطغيان محبة للعدالة والشورى والمساواة بين الناس ، ذلك الشعر السياسي الوطني الذي دفعه إلى مركز الصدارة بين أبناء شعبه ، وجعل منه زعيما محبوباً ، وهو ذلك الشعر الذي ألقى به في غيابة السجن ، ورمى به بعيداً عن وطنه ، ويا ليته كف عن مثل هذا الشعر ، وهو يتجرع غصص النفي والتشريد والمرض ، بل زفر زفرات حارة كادت تحرق الطاغين المعتدين بشواظها الملتهب ، ولذلك طالت غيبته عن دياره وخاف أولو الأمر من عودته حتى لا يعيدها جذعاً مشبوبة الضرام ؛ ولما هدأت ثورته ، وضعفت مُنَّته ، وكسرت حدته ، وخفت شرته ، واشتكى ما به من ضعف وهزال ، ودب إلى جسمه دبيب الفناء ، أمنوا جانبه ، فأعادوه إلى وطنه .

كان البارودي طموحاً يعتلج في حنايا صدره أمل كبير يود أن يجدد به مجد أسلافه ، وقد رزق العقل الذكي ، والفؤاد الأبي ، والعلم والبصيرة ، فلم لا يصل إلى ما يريد ؟ ، ولكن ما كل ما يشتهيه الإنسان ويأمله يسهل نيله . وقد وقفت في سبيل تحقيق هذا الأمل عقبات شتى ، وظل الأمل يساوره على الرغم من هذه الصعاب . ولقد أخفق البارودي في تحقيق ما يصبو إليه ، واعتذر عن إخفاقه :

وإني امرؤ لولا العوائق أذعنت لسطوته البدو المغـيرة والحضر

ويلوح لنا أن البارودي كان بطبعه محباً للحرية ، متمرداً على الظلم ، شأن كل شجاع شريف ، ولعل للوراثة وللنشأة التي نشأها أثراً في هذا ، ولقد غذاها ما حفظه من شعر الحماسة والقوة عند العرب ، وهم أبطال الحرية في فيافيهم الواسعة ، وقد تغنوا بحروبهم ، وشجاعتهم ، وانتصاراتهم وأنفتهم ، وكان شعرهم سجلا وافياً لمكارم أخلاقهم ، وقد قرأه البارودي وهو بعد شاب غرير ، فرسخت هذه الصفات في ذهنه ، وشب مطبوعاً عليها ، يتمثلها نماذج يحتذيها ، ويرددها في شعره ، ويود أن يحققها عملا في الحياة .

ولقد صور البارودي الفساد الذي شاع أمره في مصر ، واضطراب أحوالها ، والفزع الذي ملأ قلوب الناس ، من استبداد إسماعيل وتوفيق ، وإرهاقهما الأمة بشتى ألوان الإرهاق ، وبتبديد مال الشعب الكادح يمنة ويسرة على مظاهر خداعة وشهوات خاصة ، فتنبأ البارودي بالثورة قبل حدوثها ، مما يدل على أنه كان شديد

الصلة بزعمائها ، وأن الناس قد ضاقوا ذرعاً بهذا الفساد ، وبرموا به ، ولا بد من سبيل إلى الإصلاح . وقد عرفنا فيما سبق كيف أن البارودى كان من زعماء الثورة ، وأنه كان يطمع فى الانقلاب ، بل كان يحض على الثورة فى شدة بقوة وحماسة ، ولما رأى تدخل فرنسا وإنجلترا أراد أن يتراجع ، وأخذ ينصح زعماء الثورة بالتريث حتى لا تسوء العواقب ، بيد أن التيار كان شديداً ، فلم يجد بداً من متابعة الثورة والسير فى الشوط حتى النهاية . كان البارودى يكره الاستبداد والطغيان ، مع أنه كان فى زمن ألف الناس فيه الطغيان . استمع إليه يقول ما لم نسمعه من شاعر معاصر ، بل من كاتب من كتابنا مع طغيان حكامنا وفساد أمرهم فى العهد البائد :

يأيها الظالم فى ملكه أغرك الملك الذى ينفد
اصنع بنا ما شئت من قسوة فالله عدل والتلاقى غد

وكان من الداعين إلى الشورى ، وأن تشترك الأمة فى تدبير شئونها ، حتى لا يستبد الهوى بالحاكم فيجمح ويشتط وتفسد الأمور ، وقد مدح توفيقاً لما ولى أمور مصر لأنه كان قد وعد وهو ولى للعهد أن يجعل الشورى أساس حكمه ، وكان البارودى من الداعين إلى اليقظة ومحاسبة الحكام حتى لا يستبدوا :

وكذاك السلطان إن ظن بالأمـ ـة عجزاً سطا عليها وشدا

ولما اخفقت الثورة ، وتخاذل الثوار ، وخان بعضهم بعضاً ترك هذا الإخفاق وذياك الخذلان فى نفس البارودى مرارة ظل أثرها فى لسانه مدة ، فأخذ يلفظ بشعر مرير فيه أثر الموجدة والغضب من مثل قوله :

كنا نود انقلاباً نستريح به حتى إذا تم ساءتنا مصايره

ثم أخذ البارودى يذم الثورة والثوار ، ويحاول أن يتنصل من تبعاتها ، وأن ما قاله كان بسبب ما دب بينهم من شحناء وأنهم غدروا به . وحاول أن يبرىء نفسه ويعلل هزيمته ، ويصف حنث الثوار فى أيمانهم ومواثيقهم ، ويتندم على زعامته ، ثم يصف فزعهم وفرارهم فى المعركة . وقد اتهم البارودى بأنه يطمع فى الملك ، وأنه يحاول ثل العرش وخلع توفيق فأنكر هذه التهمة بعد أن أخفقت الثورة ملتمساً أسباباً شتى لاشتراكه مع الثوار غير طمعه فى العرش .

هذا الشعر السياسى ، وهذه النفس المتوثبة الطموح ، وهذه الثورة المتأججة التى انتهت بصاحبها إلى النفى والتشريد هى من الجديد فى شعر البارودى، بل اعتبرت جديدة فى الأدب العربى كله . وإن كان المتنبى قد حاول من قبل ملكاً وثار على الدنيا التى مكنت للعبيد والخصيان والعلوج [1] فى الأرض يسوسون شعوباً ضعيفة ، وجعل يقول :

فى كل أرض وطئتها فُدُم[2] ترعى بعبيد كأنها غنم

فإنه اكتفى بالإشارة والتلميح وبالزفرة الحارة ، وبملامة الدهر ، ومحاربته له فى مطلبه ، ولكن البارودى كان يطلب شيئاً آخر : كان يطلب الحرية لقومه ، والعدل والمساواة ، وكان يطلب العيشة الهنية فى ظلال الحرية ، ولا عليه إذا طلب بجانب هذا ملكاً ليحقق لقومه آمالهم . وهب البارودى قلد المتنبى فى بعض معانيه ، فهل كان اقتحامه نار الثورة تقليداً ؟ أوَ ليس شعره هذا وليد الحوادث وصدى لها ؟

وكان البارودى من أوائل الشعراء الذين تغنوا بمصر وأهلها ، وحرصوا على خيرها ونفعها . إنه يمثل بشعره فى مصر روح القومية الجديدة التى سرت فى شعوب الأرض وجعلتهم يطالبون بالحرية والاستقلال ، ويشيدون بأوطانهم ، ويتغنون بمآثر قومهم . وقد تمثلت هذه الروح فى البارودى على غير انتظار ، وعلى غير سابقة من شعراء وطنه وزمنه ، وبهذا احتل البارودى مكانة لا تدانى فى الشعر الحديث ، هى مكانة المجدد ، والباعث ، ولقد كان يحز فى نفسه أن يكون جزاء وطنيته وإخلاصه النفى والتشريد :

لم اقترف زَلة تقضى على بما أصبحت فيه فماذا الويل والحرَبُ
فهل دفاعىَ عن دينى وعن وطنى ذنب أدان به ظلماً وأغترب

لقد زاده النفى حباً لوطنه وتعلقاً به ، وترديداً لمحاسنه ، ويتمثله على البعد جنة دانية القطوف ، عبقة الشذى .

---

(١) العلوج : جمع علج وهو الرجل من الأعاجم .
(٢) فدم : جمع فدم وهو الغبى الجاهل .

حـ ــ الغزل

ولم يكن نسيب البارودى كله قديماً ، بل ترفع فى نظرته إلى المرأة ، فحسبه منها نظرة، وتمدح بعفته فى حبه :

والعشق مكرمة إذا عف الفتى عما يهيم به الغوى الأصور [١]

يقوى به قلب الجبان ويرعوى طمع الحريص، ويخضع المتكبر

وقد فطن أحياناً إلى أن المرأة بها من أنواع الجمال غير هذه السمات المادية فقال :

لطيفة مجرى الروح لو أنها مشت على ساربات الذر ما آده الحمل [٢]

د ــ الهجاء

كما جدد البارودى فى هجائه ، فلم يقتصر على الهجاء لخصومة بينه وبين شخص معين وهو ما يسمى بالهجاء الشخصى . بل أكثر من الهجاء الاجتماعى الذى يقصد به تجسيم عيب من عيوب المجتمع وتصويره فى أبشع صورة رغبة فى الإصلاح . وقد يتمثل هذا العيب فى شخص بذاته فيهجوه الشاعر ، وليس الشخص مقصوداً لذاته ، وإنما المقصود هى هذه السوءة الاجتماعية ، ولن يبلغ الشاعر مرتبة الشعراء العالميين فى الهجاء ما لم يصل بهجوه إلى هذا النوع الاجتماعى ، وقد لجأ شعراء الغرب إلى التمثيل يصورون فيه هذه المثالب الإنسانية ويجسمون العيوب تجسيماً يحمل الشعب على الاشمئزاز منها ، والبعد عنها كما فعل شكسبير وموليير . ولم يلجأ البارودى إلى التمثيليات لأنه لم يسبق إليها فى الأدب العربى ، وحسبه أنه التفت إلى هذا النوع من الهجاء ، فتراه ينعى على قومه شيوع النفاق فيهم وظلمهم وغدرهم ، وينعى الجشع والطمع والحرص على الحياة فيصب لعنته على بخيل جشع ، ليس مقصوداً لذاته وإنما اتخذ مثلا يمثل الجشعين ، وتراه يصور صخب الجيران ، وعدم مراعاتهم لسواهم فى أسلوب تهكمى ظريف .

(١) الأصور : المنحرف عن الهدى والرشاد ، من الصور وهو الميل .

(٢) آده الحمل : أثقله وأعجزه .

٥ ــ منزلته

يعد البارودى باعث النهضة الشعرية فى العصر الحديث ، لأنه ارتفع به فجأة إلى منزلة الفحول من الشعراء العباسيين ، وأعاد له ديباجته القوية ، وفصاحة عبارته ، ومتانة قوافيه ، وخلصه من كل تلك القيود والأغلال التى كان يرسف فيها إبان عصور الضعف من حلى لفظية ومعنوية يختفى وراءهما المعنى الغث ، والفكرة المبتذلة . وجدد فى كثير من أغراضه على غير مثال سبقه من معاصريه ، وضرب نماذج صالحة لمن أتى بعده من الشعراء فى أبواب الوصف والشعر السياسى ، والهجاء الاجتماعى ، والرثاء ، والمديح . وأظهر أن للشاعر رسالة سامية وهى أن يعبر بإخلاص عن خلجات نفسه وتجاربه فى وضوح وقوة ، كما خلص الشعر من الوصمة التى لحقت به آماداً طويلة وهو أنه وسيلة للتكسب فترفع عن المديح الباطل ، والهجاء الشخصى وقال بيته المشهور :

والشعر زين المرء ما لم يكن وسـيلة للمدح والذام

وعلى الرغم من أن البارودى نهج نهج الأقدمين فى شعرهم ، من حيث الغرض والأسلوب ، وبناء القصيدة ، فإن شخصيته كانت متميزة تمام التميز ، ومثل عصره وبيئته فى وضوح وجلاء . وهو وإن لم يفد من كل الثقافات الموجودة فى زمنه ومن اللغات التى عرفها فائدة كبيرة ذات أثر واضح فى شعره ومذهبه ، إلا أنه عوض هذا النقص بصدق عاطفته ، ووضوح شعره وإحساسه ، ونصاعة بيانه ، وبمحاولته التجديد قدر استطاعته فى معانيه وأخيلته وموضوعاته ، وله قطع فى الوصف تقف جنباً إلى جنب مع كثير من الأدب العالمى . وحسبه ذلك فخراً بل إن من الإنصاف أن نقول كما قال الدكتور هيكل فى مقدمة ديوانه « إن شعر البارودى كان فى عصره جديداً كله ، كانت محاكاته للأقدمين جديدة وكانت معارضته إياهم جديدة ، وكانت رياضته القول على مثالهم جديدة ، فقد هوى الشعر العربى قبله إلى درك من الانحلال جعله بالنسبة إلينا نسياً منسياً » .

ولقد أثر البارودى فى الشعراء الذين أتوا بعده تأثيراً كبيراً . واتخذوه نموذجاً يحتذى ، ومثلا يتطلعون إليه ، من أمثال صبرى وحافظ إبراهيم والرافعى وأحمد نسيم وعبد الحليم المصرى ومحمد عبدالمطلب وأحمد محرم وأحمد الكاشف والجارم وغيرهم وتتميز هذه المدرسة بالرصانة، وقوة الأسلوب ، وسلامة القافية ومتانتها ، والاحتفال بالنغم الموسيقى ، واللفظ المنتقى ، ووضوح المعنى والصورة . والسير على نهج الأقدمين فى أسلوب القصيدة وأغراض الشعر إلا ما اقتضته ظروف البيئة والعصر والحوادث . ولم يفكر واحد من هؤلاء فى أن ينتكس شعره فيرجع إلى عصور الضعف ويقلد شعراء البديع وحلاه ، إلا ما ندر فى شعر إسماعيل صبرى .

ولقد حاول شوقى أن يجدد ، واحتفل بالمعنى أول حياته الشعرية ، ولم يهتم بالصياغة واللفظ ، فلم يحتل بين الشعراء المنزلة التى كان يرجوها على الرغم من أنه كان شاعر الأمير ، ولم يتبوأ مركز الصدارة إلا بعد أن نفى وعكف فى الأندلس على دراسة شعر القدماء وأدبهم ، فقويت عبارته ، وحسنت صياغته ، وهذا لا شك راجع إلى تأثير مدرسة البارودى وسيطرتها فى عالم الشعر .

وعلى الرغم من وجود المدرسة الحديثة وانتشار أشياعها ، تلك التى يتزعمها مطران والعقاد وشكرى والمازنى ، والتى تهتم بالمعنى أولا ، ولا تحفل كثيراً بالصياغة والموسيقى ، والتى ترى القصيدة وحدة مترابطة الأجزاء ، والتى جددت فى أغراض الشعر ومعانيه وأخيلته ، فلا تزال هناك بقية من الشعراء يقتفون أثر البارودى ، ولا يزال جمهور الأدباء يطرب لشعرهم ويتطلع إليه .

منتخبات من آثار البارودى

١ – البارودى الناثر

فى الطريق إلى المنفى

يقول البارودى نثراً ، واصفاً طريقه إلى منفاه ، وما عاناه من البحر ، وآلام الفرقة ، ولوعة الغربة :

« إنى لمَّا أفْضَتْ بى غوائلُ الزَّمَنْ[١] ، إلى مفارقة الأهْلِ والوطن ، وحَقَّتْ كلمةُ الوَدَاع ، وأنْصَتَ كُلُّ مُجيب وداعٍ ، سارت بأشْبَاحنا الفُلْك ، بتقدير مَنْ له المُلكُ ، فلمَّا توَسَّطْنَا لُجَّة اليَمِّ وغَشِيَتْنَا ضَبَابَةُ الْهَمِّ ، أَخَذَ البحرُ يَهْـدِرُ ويموجُ ، والرِّيحُ تَعْصِفُ وتَرُوجُ[٢] ، والدَّجْنُ يُبْرِق ويُرْعِدُ[٣] ، والموتُ يقرُب ويَبْعُد ، والفُلكُ بَيْنَ صُعُودٍ وهُبوط ، والناسُ بَيْنَ رجاء وقُنوط ، فشَخَصتِ الأبصار[٤] ، وغابت الأنصار ، وأقْبَلَ الفزعُ ، واستولى الجَزَعُ ، وشغلت الدموعُ المحاجِر ، وبَلَغتِ القلوبُ الحناجر ، هُنالكَ دعا رَبَّهمُ الغافلونَ ، وكَفَّتْ أذْيَالهم الرافلون[٥] ، فلا تَرَى إلاّ ناكِسَ الطَّرْفِ لا ينبِسُ بحرف ، كأنَّما

---

(١) أفضت بى : أوصلتنى ، وأدت بى . وغوائل الزمن : دواهيه جمع غائلة .

(٢) راجت الريح اختلطت فلا يدرى من أين تجىء ، ويهدر : من هدر البعير صوت فى غير شقشقة والمراد هنا صوت الأمواج المرتفع .

(٣) الدجن : الغمام المتكاثف ، أو المطر الشديد .

(٤) شخصت الأبصار : أدامت النظر لا تطرف .

(٥) كفت أذيالهم الرافلون : أى تطامن كبرياء هؤلاء الذين كانوا يطيلون الثياب ويجرون الأذيال كبراً .

أَظَلَّتْهُم الرَّجْفَة[١] ، أو غشيتهم الْوَجْفَة[٢] ، فَهُمْ لِفَرْط الْحَيْرَةِ خمودٌ ، تحسبهم أيقاظاً وهم رقودٌ ، فلم يزلْ يتخبَّطُنَا الْيَمُّ ويأخذ بأكظامِنا الغمُّ[٣] ، حتى كادت الأنفس تَزْهَقُ ، وأظفارُ المنية تُرْهِقُ ، ونحن فى وعاءٍ[٤] ، لا نملكُ غيرَ الدُّعاء ، وَكيف لنا بالخلاص ، ولات حينَ مناص[٥] ، فبعدَ لأيٍ ما[٦] سكنتِ فورةُ الريحِ وهدأتْ ثورة ابنُ بَرِيح[٧] ، وتجلَّت بنورها السماء ، واصطلح الماء والهواء ، فقرَّت الأنفسُ فى الصدور ، وتنفس كلُّ مَصْدُور ، ولم يبقَ إلَّا سَوْقُ الحديثِ ، من قديم وحديث . والفلك يمخر البحر بجؤجؤه[٨] ، ونحن من الشهر فى دُؤدؤه[٩] حتى انتهى بنا الدبيب ، ولاحت عَيْنُ سرنديب[١٠] .

منازلُ لم تألفْ بها النفسُ مَألَفاً   على أن فيها كلَّ ما تشتهى النفس
ولا عَيْبَ فيها غيرَ أنْ ليس لى بها   أنيسٌ ، وفقدُ الخِلِّ فى غُرْبةٍ حَبْسُ
وكيفَ يطيبُ العيشُ فى ظِلِّ بلدةٍ   خَلَاء من الأُلَّاف ليس بها أُنْسُ

فدخلْتُها مَشْبُوب[١١] الأنين ، على الأَهْلِ والبنين ، لا أستطيعُ لما

---

(١) الرجفة : الزلزلة ، أو النفخة الأولى فى الصور يوم القيامة ، وأظلتهم : أتت منفوقهم .
(٢) الوحفة : الاضطراب الشديد .
(٣) أكظامنا : جمع كظم وهو مخرج النفس
(٤) يقصد بالوعاء السفينة .
(٥) المناص : الملجأ ، ولات حين مناص : أى لا ملجأ لنا .
(٦) بعد لأى : بعد بطء وشدة .
(٧) ابن بريح : الغراب ، وهو عند العرب نذير الشؤم ، وهدأت ثورته كف عن النعيب .
(٨) جؤجؤ السفينة : مقدمها .
(٩) ودؤدؤ الشهر آخره .
(١٠) سرنديب : هى جزيرة سيلان التى نفى إليها الشاعر عقب الثورة العرابية .
(١١) مشبوب : من شبت النار اتقدت ومشبوب الأنين : أى أن أنينه مضطرم زائد .

عرانى دَفْعاً ، ولا أملكُ لنفسى ضَراً ولا نَفْعاً ، وما ظَنُّكَ بمَنْ غاب عنه السَّميرُ ، والْتَاعَ بالفُرْقَةِ منه الضميرُ ، فهو بَيْنَ هموم ناصبة ، وأحزان واصبة[1] وأشْجَانٍ يَهلِكُ لها الصَّبْرُ ، ومرارةٍ يحلو عندها الصبر ، إن نَطقَ فَبصَوتٍ لا يُدْركهُ السَّمْعُ أو نظر فَبعَيْنٍ مَلَأَها الدَّمعُ .

غريبٌ تَخَطَّاه الأساةُ فما لَه سوى عبراتِ الْمُقْلَتين طَبيبُ[2]
وما أَسَفِى أَنِّى غريبٌ عن الحمى ولَكِنَّنى بَيْنَ الأنام غريبُ

٢ — البارودى الشاعر المقلد

ا — النسيب

من ألوان الغزل التى جاءت فى شعر البارودى ذلك الغزل الذى يذكر فى أوائل القصائد وسميناه النسيب ، وهو غزل تقليدى لا روح فيه ولا حرارة للحب . ومن أمثلة ذلك القصيدة الآتية التى عارض فيها المتنبى فى قصيدته التى مطلعها :

أَمِنَ ازْدِيارِكِ فِى الدُّجى الرُّقباء إذْ حيث كنتِ من الظلامِ ضياء

وقد قالها فى مدح أبى على الأوارجى الكاتب :
قال البارودى :

صِلَةُ الْخَيالِ على البِعادِ لِقاء لَوْ كانَ يَملكُ عَيْنِىَ الإغْفَاء[3]
ياهَاجِرى مِنْ غيرِ ذَنبٍ فى الهوى مَهلاً فَهجْرُكَ وَالْمَنُونُ سواء[4]
أَغْرَيتَ لَحظَك بالْفُؤادِ فَشَفَّهُ وَمنَ الْعيونِ عَلَى النفوسِ بَلاء[5]

---

(١) واصبة : أى تجلب المرض ، أو دائمة مستمرة .

(٢) الأساة : جمع آس وهو الطبيب .

(٣) الإغفاء : النعاس .

(٤) المنون : الموت .

(٥) شفه : هزله وآلمه .

هِى نَظرةٌ فامننْ عَلَىَّ بِأُختها ... فالخمرُ منْ أَلَمِ الخُمارِ شِفاء[1]

أَنا منكَ مَطْوِىٌّ الفؤاد على جَوىً ... لولا الدُّموعُ ذَكتْ بهِ الْحَوباء[2]

لا أَنتَ تَرْحَمُنِى ، ولا نار الْهوى ... تخبو ، ولا للنفسِ عَنكَ عَزاء

فانْظُرْ إلىَّ تجدْ خَيالَةَ صورةٍ ... لمْ يَبق فيها للحيــاة ذَماء[3]

رَقَّتْ لِى الورقاء فِى عَذَباتِهــا ... وَبكتْ عَلَىَّ بدمعها الأَنْداء[4]

وتحدَّثتْ رُسلُ النسيمِ بِلوْعَتى ... فَلِكلِّ غُصنٍ نحوها إصغاء

كَلَفٌ تَنَاقلَهُ الْحَمَامُ عَن الصَّبا ... فَصَبَتْ إليه الْغيدُ والشعراء[5]

فَبِقلبِ كُلِّ فتى غرامٌ كامنٌ ... وبعِطف كلِّ مَايحة خُيَلَاء[6]

فَدَعِ التَّكهُّنَ ياطَبيبُ فإنما ... دائى الهوى ، ولِكُلِّ نَفسٍ داء

ألم الصبابة لذةٌ تَحيا بهـــــا ... نَفسى وَدائِى لو علمت دَوَاء[7]

وَبِمُهْجَتِى ، رَشَئِيَّةٌ مِن دونها ... أُسْدٌ لَهَا قَصبُ الرِّياح أَباء[8]

---

(١) الخمار (بضم الخاء) : ما يصيب المخمور من الصداع وأذى الخمر .

(٢) الجوى : شدة الوجد بالمحبوب ، وذكت : اشتعلت والمراد هلكت وأصله من ذكت النار إذا اشتد لهيبها . والحوباء : النفس .

(٣) الذماء : الحركة وبقية النفس .

(٤) الورقاء : الحمامة فى لونها بياض إلى سواد . والعذبات الأغصان . والأنداء : جمع ندى وهو البلل والمطر .

(٥) كلف : ولوع وعشق . والصبا : ريح تهب من مطلع الشمس عند العرب وهى أحب الرياح إليهم . والغيد : جمع غيداء وهى المرأة الناعمة اللينة .

(٦) العطف : الجانب . الخيلاء : الزهو .

(٧) هذا البيت تضمن معنى قول أبى نواس فى الخمر « فداوِنى بالتى كانت هى الداء » .

(٨) المهجة : دم القلب ، أو الروح ، والمراد أنه يفديها بنفسه ، أو أن صورتها وحبها ملء قلبه . ورشئية : نسبة إلى الرشأ وهو الظبى أى الغزال إذا قوى ومشى مع أمه وتشبه به الحسناء فى جمال العينين والجيد والرشاقة ولطف الحركة . والأباء (كسحاب) : الأجمة . ويريد أنها ممنوعة يحول بينها وبينه حراس أيقاظ أشداء كالأسد يصونونها فى شبه أجمة من الرماح .

هَيفاء مَال بهـا النَّعيمُ ، فخطْوُها دُون الْقطاةِ ، ونُطْقُها إيماء[١]
تَرنُو بأحْورَ ، لو تَمــكَّنَ لحظُه من صَخرةٍ لارفَضَّ منها الماء[٢]
حَـكم الجمـالُ لها بما تختـارهُ فَتحَـكَّـمَتْ فى النَّاس كيف تشَاء

ب — الفخر

بعد وصول البارودى إلى « سرنديب » منفياً رأى بنته الوسطى سميرة فى المنام ، فهاجه الشوق إلى مصر ، وتذكر أيامه الحلوة ، كما تذكر مصارعته للرجال وأحداث الزمان . وقد تطرق من كل هذا إلى الفخر بخلاله وجلده وشجاعته ، وأنهم حسدوه لعلو مكانته وكريم صفاته .

عَلَيَّ طِلابُ العزِّ مِن مُستقرِّهِ ولا ذَنْبَ لِي إن عارَضتنى المقادرُ[٣]
فما كُـلُّ محاولِ العريكةِ خائبٌ وَلا كلُّ مَحْبوكِ التريكة ظافرُ[٤]
فماذا عسى الأعداء أن يتقوَّلوا عَلَيَّ وَعِرْضى ناصِحُ الْجَيب وَافرُ[٥]
فَلى فِى مَرَاد الْفضلِ خيرُ مَغبَّةٍ إذا شانَ حيًّا بالخيانة ذاكِرُ[٦]
مَلَـكْتُ عُقاب الملكِ وَهى كسيرةٌ وَغادرتُها فى وكرِها وَهْى طائرُ[٧]
ولو رُمتُ ما رامَ امرؤٌ بخيـانةٍ لَصَبَّحَنى قِسطٌ من المالِ غامِرُ

---

(١) هيفاء : ضامرة البطن رقيقة الخصر . والقطاة : نوع من الحمام .

(٢) ترنو : تنظر ، وأحور : صفة من الحور وهو شدة بياض العين فى شدة سوادها ، وارفض : خرج .

(٣) **الطلاب** : الطلب . وهذا البيت مأخوذ من قول أبى فراس الحمدانى المتوفى سنة ٣٥٧ ﻫ
على طلاب العـــز من مستقره ولا ذنب لى إن حاربتنى المطـــالب

(٤) العريكة : النفس والطبيعة . ومحبوك : متقن . والتريكة : بيضة الحديد للرأس كالخوذة . وحبك التريكة كناية عن القوة ، والمعنى : أن المقادير قد تسعد الضعيف فيفوز ، وتعترض الكمى الشجاع فلا يظفر .

(٥) ناصح الجيب : نقى خالص . ووافر : تام .

(٦) مراد الفضل : مجاله . والمغبة : العاقبة . وشان : عاب .

(٧) العقاب : طائر من جوارح الطير ويعنى بعقاب الملك الوزارة ، وأنه تولاها وهى معوجة وتركها وهى مستقيمة .

ولـكن أَبتْ نفسى الـكريمةُ سوأةً ... تُعابُ بها والدهرُ فيه الْمعَايرُ(١)

فلا تحسبنَّ المال يَنفعُ ربَّهُ ... إذا هو لم تَحْمَدْ قِراهُ الْعشائرُ(٢)

فقد يَسْتَجِمُّ المالُ والمجدُ غائبٌ ... وقد لا يكونُ المالُ والمجدُ حاضرُ(٣)

ولو أَنَّ أَسْبابَ السِّيادةِ بِالْغِنى ... لَكاثر ربَّ الفضلِ بالمالِ تاجرُ(٤)

فلا غَرْوَ أَن حزتُ المكارمَ عارياً ... فقد يشهدُ السيفُ الوَغَى وَهْوحاسرُ(٥)

أنا المرء لا يَثْنيهِ عن دَرَكِ العُلا ... نَعيمٌ ، ولا تَعْدو عليه المفاقرُ(٦)

قَئُولٌ وأحلامُ الرِّجال عوازبٌ ... صَئُولٌ وأَفْواهُ المنايا فواغرُ(٧)

فلا أنا إن أَدنانِيَ الوُجدُ باسمٌ ... وَلا أَنَا إن أَقْصَانِيَ الْعُدْمُ باسرُ(٨)

فإن كنتُ قد أَصْبحتُ فَلَّ رزيَّةٍ ... تَقاَسَمها فى الأَهلِ بادٍ وحاضرُ(٩)

فَكم بطلٍ فَلَّ الزَّمانُ شبَاتَهُ ... وَكم سَيِّدٍ دارت عليه الدَّوَائرُ(١٠)

---

(١) المماير : المعايب .

(٢) القرى : ما يقدم للضيف .

(٣) يستجم : يجتمع .

(٤) كاثره : غالبه فى الكثرة .

(٥) عاريا : بلا مال . وحاسر : مكشوف مجرد من غمده .

(٦) درك : بمعنى إدراك الشىء . المفاقر : وجوه الفقر وأحواله . ومعنى الشطر الثانى أن الفقر لا يغير خلقه .

(٧) قئول : لسن فصيح . وعوازب : غائبة وذاهبة وكنى بعزوب الأحلام عن اشتداد الخطب وتعقد الأمور . وصئول : فاتك شجاع . وفواغر : مفتوحة .

(٨) الوجد : الغنى . وباسر : عابس الوجه .

(٩) فل : مصدر بمعنى منهزم أومكسور ، ورزية : مصيبة . وباد : من أهل البادية .

(١٠) فل : كسر وثلم ، وشباة كل شىء : حده . والدوائر : النوائب والنوازل .

ج ــ الحكمة

اشتهر بعض الشعراء القدامى بالحكمة يودعونها أشعارهم فقال البارودى يحاكيهم :

مَنْ طلبَ العِزَّ بلا آلة أَدْرَكَهُ الذُّلُّ مَكَان الظَّفَرْ
فاصْبِرْ على المكروه تظفَرْ بما شئتَ فقد حاز المُنَى مَنْ صَبَرْ
وَقِفْ إذا ما عَرَضَتْ شُبْهَةٌ فاللَّبْثُ خَيْرٌ مِنْ رُكوبِ الغَرَرْ[١]
وَلا تقولَنَّ لشىءٍ مَضَى يا ليتَهُ دام وخُذْ ما حَضَر
ولا تعامِلْ صاحباً بالتى تَرْجِعُ عَنْها تائباً تَعْتَذِرْ
وَغُضَّ طَرْفَكَ إنْ خِفْته فحاجِبُ الشَّهْوَةِ غَضُّ الْبَصَرْ

د ــ وصايا

بادِرِ الفُرصةَ واحذرْ فوتَها فبلوغُ العِزِّ فى نَيْلِ الْفُرَصْ
واغتنِمْ عُمْرَكَ إبَّانَ الصِّبَا فَهْوَ إنْ زادَ معَ الشيبِ نَقَصْ[٢]
إنَّما الدُّنيا خيالٌ عارضٌ قلَّمَا يَبْقَى . وأَخْبارٌ تُقَصْ[٣]
تارةً تَدْجو ، وطوراً تَنْجلى عادةُ الظِّلِّ سَجَا ثم قَلَصْ[٤]
فابتدرْ مَسْعَاكَ ، واعْلَمْ أن مَنْ بادر الصيد مع الفجر قَنَصْ
لن ينالَ المرء بالعجز المُنَى إنما الفوزُ لمن هَمَّ فَنَصْ[٥]

---

(١) الغرر : الخطر والتهلكة وهو اسم من غرر المرء بنفسه تغريراً أى عرضها للهلاك والضرر .

(٢) إبان الصبا : وقت الصغر .

(٣) تقص : تحكى . وحذف التشديد للشعر .

(٤) تدجو : تظلم والمراد تسوء . وسجا : امتد وسكن ودام . وقلص : انقبض وانزوى

(٥) فنص : المراد أنفذ ما هم به من قولهم : نص الرجل ناقته إذا استخرج أقصى ما عندها من السير . ونص الشىء : حركه . ونص فلان فلاناً : إذا استقصى مسألته عن الشىء .

يكدحُ العاقلُ فى مأمَنِه فإذا ضاقَ به الأمرُ شَخَص(١)
إنَّ ذا الحاجَة ما لَمْ يَغْتَرِبْ عَنْ حِمَاهُ مثلُ طَيْرٍ فى قفَصْ(٢)
ولْيَكُنْ سَعْيُكَ مجداً كُلُّه إنَّ مرْعَى الشَّرِّ مكروهٌ أَحَص(٣)
واتْرُكِ الْحِرصَ تَعِشْ فِى رَاحَةٍ قلَّما نَالَ مُنَاهُ مَنْ حَرَصْ
قَدْ يَضُرُّ الشىءُ تَرْجو نَفْعَه رُبَّ ظَمْآنَ بِصَفْوِ الماء غَصْ(٤)
مَيِّز الأشياءَ تَعْرِف قَدْرها ليستِ الغُرَّةُ مِنْ جِنْسِ الْبَرَص(٥)
واجتنب كُلَّ غَبِىٍّ مائقٍ فَهْوَ كالْعَيرِ إذا جَدَّ قَمَصْ(٦)
إنما الجاهِلُ فى العينِ قَذًى حيثما كانَ وفى الصَّدْرِ غَصَص(٧)
واحْذَرِ النَّمَّامَ تَأمَنْ كيدَه فَهْوَ كالْبُرْغوث إِنْ دَبَّ قَرَصْ
يَرْقُبُ الشَّرَّ فإنْ لاحَتْ له فُرْصَةٌ تَصْلُحُ لِلْخَتْلِ قَرَص(٨)
ساكِنَ الأَطْرافِ إلا أنه إن رأى مَنْشَبَ أُظْفُورٍ رَقَصْ
واختبرْ مَنْ شئتَ تَعْرِفْه فما يَعْرِفُ الأخلاقَ إلاّ من فَحَصْ
هذه حكمة كَهْلٍ خابرٍ فاقتنصْها فهى نعم المُقْتَنَص(٩)

(١) شخص : انتقل وارتحل وهاجر .
(٢) كثيراً ما حبب الشعراء إلى الناس السفر وافتنوا فى تشبيه المقيم والراحل كقول ابن الوردى :
وبمكث الماء يبقى آسناً وسرى البدر به البدر اكتمل
(٣) الأحص : النكد المشئوم الوبيل الذى لا خير فيه .
(٤) غص بالماء : شرق به أو وقف فى حلقه فلم يكد يسيغه .
(٥) الغرة : بياض مستحسن فى جبهة الفرس . والبرص : بياض يظهر فى ظاهر البدن لفساد مزاجه وهو من الأدواء البشعة الفظيعة .
(٦) مائق : أحمق سىء الخلق . والعير : الحمار . وجد فى السير : أسرع . وقمص : وثب ونفر .
(٧) والغصص : مصدر من غصصت بالطعام والشراب ، والغصة : ما غص به الإنسان من طعام ، وقد يسمى الغيظ غصة على التشبيه .
(٨) فرص الفرصة : انتهزها وأصابها .
(٩) الكهل : الرجل إذا وخطه الشيب أى خالطه والمراد المجرب العاقل .

٣ - البارودى الشاعر المجدد

١ - الشاعر العاطفى

لقـــاء

أكثر البارودى فى شبابه من شعر الغزل ، ولا بدع فقد كان شاعراً فارساً ذا مال وجاه ، وهو من أبناء الطبقة الحاكمة . أضف إلى كل هذا كثرة ما وعته ذاكرته من الأدب العربى ، والغزل فيه من أهم ما قصد إليه الشعراء ، فتشبعت به مخيلته . وكان شعره الغزلى يأتى أحياناً فى أول القصيدة على عادة جمهرة شعراء العربية وهو المعروف بالنسيب ، وأحياناً يفرد له قصائد خاصة . ومن القصائد التى أفردها للغزل القصيدة الآتية ، وهى تدل على السمات العامة لهذا الغزل :

لَوَى جِيدَهُ وانْصَرَفْ فَمَا ضَرَّه لَوْ عَطَفْ[1]

غَـــزَالٌ لَهُ نَظْرَةٌ أعانَتْ عَلَيَّ الْكَلَفْ[2]

تبسَّمَ عـن لُؤْلُؤٍ لهُ مِن عَقيقٍ صدفْ[3]

وَتَاهَ فـــلم يلتفتْ وشأْنُ الجمالِ الصَّلفْ[4]

جرى البَنْدُ فى خصرِه عَلَى حركاتِ الهَيَفْ[5]

وَما ذاكَ خالٌ بدا ولكنْ وسامُ التَّرفْ[6]

---

(١) الجيد : العنق . ولوى جيده : كناية عن الإعراض والصد .

(٢) الكلف : الغرام والهوى والحب الشديد من كلف بالشىء إذا أغرم به .

(٣) يريد باللؤلؤ : الأسنان ، وبالعقيق : اللثة والعقيق حجر كريم تتخذ منه فصوص الخواتم ويكثر باليمن وأجود أنواعه الأحمر . والصدف : غشاء الدر وغلافه والواحدة صدفة .

(٤) تاه : تكبر من التيه وهو الكبر . والصلف : التمدح بما ليس عندك والمراد به هنا الكبر .

(٥) البند : كلمة فارسية معربة ، ويراد بها هنا المنطقة والحزام وشبههما . والخصر : الوسط . والهيف : رقة الخصر وضمور البطن وهو من محاسن النساء .

(٦) الخال : شامة أو نكتة سوداء تكون فى خد الإنسان وقد تصنعه المرأة للزينة . والوسام : فى الأصل العلامة توسم بها الدابة وقد استعمل حديثاً فيما ينعم به الملوك على المستحقين للتكريم كالأنواط ونحوها . والترف : النعيم والرفاهية .

رآنى به مُولَعاً فعاتبنى وانحرفْ[١]
ولم يدرِ أنى به عَلَى جمراتِ التلفْ[٢]
فقلتُ لهُ سيِّدى ! ترفَّقْ بصبٍّ دَنِفْ[٣]
فقال : أخافُ العِدَا فقلتُ له : لا تخفْ
فإنِّى عفيفُ الهوَى وَمَا كلُّ صَبٍّ يعفْ
وأنشدْتهُ قطعةً وَشعرىَ إحدى الطُّرفْ[٤]
فأصغى لهـا باسماً وَبانَ عليهِ الأسفْ[٥]
ونمَّتْ بهِ خجلةٌ تدلُّ عَلَى ما اقترفْ[٦]
وقال : أهذا الضنى جناهُ عليك الشغفْ[٧]
فقلتُ : نعمْ سيدى ! وَأبرحُ ممَّا أَصفْ[٨]
فصدَّق لكنَّهُ تجاهلَ لمَّا عرَفْ[٩]

---

(١) مولعاً : مغرماً .

(٢) به : بسبب تعلقى به .

(٣) دنف : براه المرض حتى أشرف على الموت . والصب : المحب العاشق من الصبابة وهى حرارة الشوق ورقة الهوى .

(٤) أنشدته : قرأت له بصوت مرتفع ، والطرف : جمع طرفة وهى الشىء المستحدث الطريف الممتع العجيب .

(٥) أصغى لها : مال بسمعه لها . والأسف : الحزن الشديد ، ويظهر أن القطعة كانت تتضمن وصف ما يلاقيه الشاعر من الوجد واللوعة .

(٦) نمت : ظهرت . وخجلة : اسم مرة من الخجل وهو التحير والدهش من الاستحياء . واقترف الذنب : أتاه وفعله .

(٧) الضنى : مرض مخاطر كلما ظن برؤه نكس . والشغف : من شغفه الحب أى أحرق قلبه أو أمرضه ، أو اخترق شغاف قلبه وهو غلافه وحجابه .

(٨) أبرح : أشد برحاً (بفتح فسكون) ، وشدة وعذاباً ، وهو اسم تفضيل على غير قياس من قولهم : برح به الشوق والهوى ، أى قوى واشتد .

(٩) تجاهل : أظهر الجهل .

وقالَ : أَطعْتَ المُنىَ و بعضُ الأماني سَرَفْ[١]
وما كلُّ ذى حاجةٍ يفوزُ بها إنْ عكفْ[٢]
فأشفقتُ من قَولِهِ ولكنَّ ربِّى لطفْ[٣]
فلمَّا رَأَى أَدْمُعِى توالتْ ، وقلبي رَجفْ[٤]
تبسمَ لى ضاحكاً ومانَعَ ثمَّ انعطفْ
فأغرَمْتهُ قُبلةً (عفا اللهُ عمَّا سلفْ)[٥]

قلب مشتّت

وهذه أيضاً زفرة من شعر البارودى العاطفى :

سَمِعَ الخلىُّ تَأَوُّهِى فَتَلَفَّتَا وأَصَابَهُ عَجَبٌ فقَالَ : مَنِ الفتى؟[٦]
فأجبتهُ إنى امرؤٌ لَعِبَ الأسى بِفؤَادِهِ يوْمَ النَّوَى فتشتَّتَا[٧]
انظر إلىَّ تجِدْ خيالا بالياً تحت الثياب يكاد ألَّا يُنعتَا[٨]
قد كان لى قلبٌ أَصابَ سوادَهُ سهمٌ لطرْفٍ فاترٍ فتفتَّتَا

---

(١) المنى : جمع منية (بضم فسكون) وهى ما يتمناه الإنسان ، ومثلها الأمنية . والسرف : مجاوزة القصد وضد الاعتدال كالإسراف .

(٢) عكف على الشيء : أقبل عليه مثابراً مواظباً .

(٣) أشفقت : خفت وجزعت .

(٤) توالت : تتابعت . ورجف : خفق واضطرب .

(٥) أغرمته قبلة : المراد قبلته ولثمته ، وقد جعل القبلة كالغرامة التى يلزم أداؤها ، وكأنه يطلب الرد ، وسلف : مضى وذهب . والشطر الثانى : اقتباس من القرآن (الآية ٩٥ سورة المائدة) .

(٦) الخلى : الخالى من الهم والعشق .

(٧) الأسى : الحزن . النوى : الفراق . وتشتت : تفرق .

(٨) ينعت : يوصف . طالما وصف شعراء العرب النحول وبالغوا فيه مبالغات لا نستحسنها فى هذا العصر كقول بشار :

تبعَ الهوى قلبى فهامَ وليته ... قبل التوغُّلِ فى البلاءِ تَثَبَّتَا
أَلْقتهُ فى شَرَكِ المحبةِ غادةٌ ... هيهات ، ليس بصاحبى إن أَفْلتا
كالورد خدًّا ، والبنفسج طُرَّةً ... والغصنِ قَدًّا ، والغزالةِ مَلْفِتاَ(١)
نَظَرَتْ بكَحْلاوَيْنِ أَوْدَعَتا الهوى ... بالقلبِ حتى هام ثم تخلَّتا
تاللهِ لو عَلِمَ العذولُ بما جنى ... طرْفى عَلَىَّ لساءَهُ أن يَشْمَتا
طرْفٌ أَطَلْتُ عِنانه ليُصيبَ لى ... بعضَ المنى فأصابنى لمَّا أتى(٢)
يا قلبُ حَسْبُكَ ، قد أفاقَ مَعَاشِرٌ ... وَأَراكَ تدْأَبُ فى الهوى فإلى متى ؟

حرقة الهجر

ولا بد للعاشق الصب أن يتغلب على جهاد الوصل والهجر فقال البارودى يصف لوعة الهجر وحرقته :

ما أطولَ اللَّيلَ على الساهر ... أَمَا لهذا الليلِ من آخرِ ؟
يَا مُخْلِفَ الوعدِ أَلا زَوْرَةٌ ... أَقضِى بِها الحقَّ من الزائرِ(٣)

إن فى بردى جسما ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدم

أو كقول المتنبى :

روح تردد فى مثل الخلال إذا ... أطارت الريح عنه الثوب لم يبن

أو كقول ابن الفارض :

قل تركت الصب فيكم شبحاً ... ما له مما براه الشوق فى
كهلال الشك لولا أنه ... أن عينى عينه لم تتأى

(١) الطرة : الشعر الموفى على الجبهة تطره الجارية أى تسويه وتعدله وتصففه ، وتشبيه الطرة بالبنفسج غير مألوف ، ولعله يشير إلى ما فى الطرة من رائحة ذكية ، أو يقصد تشبيهها بطاقة البنفسج فى النعومة والغزارة .

(٢) أراد أن يمتع نظره برؤية هذه الحسناء ففتنته محاسنها ووقع فى شرك حبها .

(٣) الزورة : اسم مرة من الزيارة .

تركْتَنى من غمراتِ الهوى في لُجِّ بَحرٍ بالرَّدى زاخِرِ (١)
أسمعُ فى قلبى دبيبَ المنى وألمحُ الشُّبهةَ فى خاطرى (٢)
فتارةً أهدأُ من رَوْعَتى وتارةً أفزَعُ كالطائرِ (٣)
وَبيْنَ هاتيْنِ شَبا لوْعَةٍ لها بقلبى فَتْكةُ الثَّائرِ (٤)
فهلْ إلى الوصلةِ منْ شافِعٍ أمْ هل على الصَّبوَةِ من ناصرِ (٥)
يَا قلْبُ لا تجزَعْ فإن المنى فى الصبر ، واللهُ مع الصابرِ

شوق وحنين

نفى البارودى بعد أن أخفقت الثورة العرابية إلى جزيرة « سرنديب » من جزر المحيط الهندى فى ديسمبر ١٨٨٢ وظل بها منفياً سبعة عشر عاماً ، ولم يمض عليه يوم لم تذب فيه نفسه حسرة على غربته ومآله ، وحنيناً إلى وطنه وأهله . وقد كان هذا النفى ذا أثر بالغ فى شعر البارودى ، لفرط حساسيته ، وشعوره بالظلم والقسوة لأنه كان يريد الخير لوطنه ولكنه جوزى عليه شر جزاء وفى ذلك يقول :

فهل دِفاعِىَ عَنْ دِينى وَعَنْ وطنى ذنبٌ أُدَان بِهِ ظُلْماً وأَغْتَرِبُ

ولقد قال وهو فى المنفى قصائد غاية فى الجودة والرقة تفيض شوقاً وحنيناً إلى مصر . وكلما مرت به الأيام ، وتقدمت به السن ، زاد ضرام هذا الشوق ففاضت شاعريته ، ومما زاده رقة وتأثيراً ما كان يبلغه وهو فى منفاه من موت أصدقائه الواحد تلو الآخر ، ولذلك كان يزفرها زفرات تقطع نياط الأكباد ، استمع إليه يقول :

---

(١) غمرات الهوى : شدائد الحب . والردى : الهلاك . وزاخر : طام ممتلىء .

(٢) الدبيب : السير اللطيف اللين . والمنى : الأمانى والآمال واحدتها منية . وألمح : أرى ، والشبهة : الالتباس والشك ومعنى البيت : أنه يعيش بين الأمل والشك ، فإذا انتعشت نفسه بالآمال كدرها ما يخطر على باله من الشك فى تحقق هذه الآمال .

(٣) الروعة : الفزعة وهى اسم مرة من الروع بمعنى الفزع والخوف .

(٤) بين هاتين : أى حالتى الهدوء والفزع . والشبا : جمع شباة وهى حد كل شىء .

(٥) الوصلة : الاتصال . والمراد بالصبوة : الهوى والغرام ، يتمنى شافعاً ووسيطاً يمهد له سبيل الوصال أو ناصراً يعينه على الصبوة والغرام .

لَبَّيْكَ يا داعىَ الأشواقِ من داعى ... أسْمَعتَ قلبى، و إن أخطأتَ أسماعى[1]

مُرْنى بما شئتَ أبلُغْ كلَّ ما وصلَتْ ... يَدِى إليه فإنى سامعٌ واعى

فلا وَربِّك ما أُصْغِى إلى عذَلٍ ... ولا أُبيحُ حِمى قلبى لخدَّاعٍ[2]

إنى امروٌ لا يَرُدُّ العَذْلُ بادرَتى ... ولا تَفُلُّ شَباةُ الخطبِ إزْماعى[3]

بَذَلْتُ فى الحبِّ نفسى وهْى غاليةٌ ... لباخلٍ بصفاءِ الوُدِّ مَنَّاعِ

أشكو إليه ولا يُصغى لمعذرتى ... من غَيرِ ذَنبٍ جنَته النفسُ أو داعى

وَيلاهُ من حاجةٍ فى النفسِ هامَ بها ... قلبى وقصَّرَ عن إدراكها باعى[4]

أسْعى لها وَهْى منى غيرُ دانيةٍ ... وكيفَ يبلُغُ شأوَ الكوكب الساعى[5]

يا حبَّذا جَرْعَةٌ من ماءِ مَحْنِيَةٍ ... وضَجعةٌ فوْقَ بردِ الرَّملِ بالقاعِ[6]

ونَسْمةٌ كشَميمِ الخلدِ قد حملَتْ ... ريَّا الأزاهيرِ من مِيثٍ وأجْراعِ[7]

يا هلْ أرانى بذاكَ الحىِّ مجتمعاً ... بأهلِ وُدِّىَ من قوْمى وأشياعى[8]

---

(١) لبيك : لزوماً لطاعتك . وأخطأت أسماعى : أى كم أسمع هذا النداء وأخطأ طريقه إلى سمعى . يتخيل أن الأشواق تدعوه وأنها أخطأت الطريق إلى سمعه .

(٢) فلا وربك : أقسم بر بك و(لا) مزيدة لتوكيد القسم . والعذل : اللوم .

(٣) البادرة : ما يبدر من الإنسان عند غضبه من قول أو فعل والمراد بالبادرة هنا شدة العزم وقوة الإرادة . وتفل : تكسر . وشباة السنان : حده . والخطب : النازلة الشديدة من نوائب الدهر . والإزماع : العزم .

(٤) ويل : كلمة عذاب . والمراد بالحاجة هنا : قربه من مصر .

(٥) الشأو : الغاية .

(٦) المحنية من الوادى : منعطفه أى الموضع الذى ينحنى فيه . والقاع : أرض واسعة سهلة مستوية .

(٧) النسمة : (بفتح السين) وسكنت هنا للضرورة وهى الريح المعتدلة والمراد بشميم الخلد : نسيم الجنة . وريا الأزاهير : ريحها الطيبة : والميث : جمع ميثاء وهى الأرض السهلة اللينة من غير رمل . والأجراع : جمع جرع (كجبل) وهو الأرض الرملية السهلة الطيبة المنبت .

(٨) يا : حرف نداء للالتفات فكأنه قال : يا قوم هل أرانى بذاك الحى مجتمعاً .

منازلٌ كنتُ منها فى بُلَهْنِيَةٍ ... مُمَتَّعاً بينَ غِلمانى وأتباعى[١]

فاليومَ أصبحتُ لا سهمى بذى صَرَدٍ ... إذا رميْتُ ولا سيْفى بقطَّاعِ[٢]

أبيتُ فى قُنَّةٍ قَنواءَ قد بلغتْ ... هَامَ السِّماكِ وَفاتَتْهُ بأَبْواعِ[٣]

أظَلُّ فيها غريبَ الدَّارِ مُبْتئساً ... نابى المضاجعِ منْ هَمٍ وأوجاعِ

لا فى « سَرَنْديبَ » خِلٌّ أستعينُ به ... عَلَى الهمومِ إذا هاجتْ ولا راعى

يَظُننى من يرانى ضاحكاً جذِلاً ... أَنِّى خلىٌّ وَهمى بين أضلاعى

وَلا وربِّك ما وَجْدى بمندرسٍ ... عَلَى الْبِعادِ ولا صبرى بمِطواعِ[٤]

لـكننى مالكٌ حزمى ومنتظرٌ ... أمراً من الله يَشفى بَرْحَ أوجاعى[٥]

أكُفُّ غَربَ دموعى وهْى جاريةٌ ... خَوْف الرقيبِ وقلبى جِدُّ مُلتاعِ[٦]

فإن يكن ساءنى دهرى ، وغادرنى ... رهنَ الأسى بين جدْبٍ بعد إمراعِ[٧]

فإنَّ فى مصر إخواناً يسرُّهمُ ... قربِى ويُعجِبهُم نظمِى وإبداعِى

---

(١) البلهنية : الرخاء والرفاهية وسعة العيش .

(٢) صرد : مصدر صرد السهم (من باب فرح) أى أصاب ونفذ .

(٣) القنة : أعلى الجبل . وقنواء : عالية مرتفعة صفة من القنا وهو ارتفاع أعلى الأنف . والهام : جمع هامة وهى رأس كل شىء وأعلاه . والسماك : نجم يضرب به المثل فى الارتفاع . وهما سماكان : أحدهما السماك الأعزل ، والآخر السماك الرامح . والأبواع : جمع باع .

(٤) مندرس : ذاهب وزائل . ومطواع : مطيع .

(٥) البرح : الشدة .

(٦) غرب دموعى : انهمالها وفيضانها . وملتاع : يحترق شوقاً .

(٧) الإمراع : الإخصاب .

عتـــاب

تمتلىء أحياناً نفس المحب بأشياء ينكرها من حبيبه فينفس عنها بالشكوى والعتاب :

أَلَيس من العدلِ أن تسمعا ؟ فأشكو إليك نَموماً سعَى[١]

أطاع له الماء حتى استقى وأمكنه الرِّعْىُ حتى رعَى[٢]

أتاك فأغْشَيْتَهُ منزِلاً رحيباً وأرْعَيْتَه مِسْمَعا[٣]

فأَبدعَ ما شاءَ فى فِرْيةٍ تأَنَّقَ فى صنعها وادَّعى[٤]

صَنَاعُ اللِّسانِ خَلوبُ البيا نِ يخلُقُ من ضِحكه أدمُعا[٥]

حريصٌ على الشرِّ لا ينثنى عن القصد ما لم يجد مَنْزَعا[٦]

يسيرُ مع الرِّفق حتى إذا تمكن من فرصةٍ أوضَعا[٧]

وما كان لولا خِلاجُ الظنونِ ليرغبَ فى القولِ أو يَطمعا[٨]

---

(١) النموم : النمام صيغة مبالغة من النميمة : وسعى : من السعاية وهى النميمة . والاستفهام فى البيت للتقرير .

(٢) أطاع له : انقاد له وأتاه طائعاً سهلا . والرعى : الكلأ والمرعى . وأمكنه الأمر : سهل عليه . البيت كناية عن أن ذلك النمام قد وجد فى المعاتب (بفتح التاء) استعداداً لسماع النميمة وقبول الوشاية .

(٣) أغشيته منزلا : أنزلته به . والمسمع (بكسر فسكون ففتح) ؛ الأذن .

(٤) الفرية : اسم من افترى عليه كذباً أى اختلقه ، وتأنق فى الأمر : أجاده .

(٥) صناع اللسان : لبق ماهر فى الكلام . خلوب : خداع . يخلق من ضحكه أدمعاً : يعمد إلى ما يثير الضحك لقدرته فيصوره باعثاً للبكاء أو هو لإمعانه فى الخداع يظهر البكاء الكاذب فى حين أنه يضحك من قلبه .

(٦) منزعاً : (كمجلس) اسم مكان من نزع فلان عن الأمر أى كف عنه أو منزع (كمذهب) مصدر ميمى بمعنى النزوع وكلاهما بمعنى منصرف ومتحول .

(٧) أوضع فى الفتنة : أسرع إليها .

(٨) خلاج الظنون اضطرابها وتحركها فى النفس ، والمعنى : أن مخالجة الظنون السيئة للمعاتب (بفتح التاء) وميله إلى اتهام الموثى به قد يسر لهذا النمام سبيل الوشاية .

وَلا وَحِفاظِك وهو اليميـــنُ ما حُلتُ عن عهدِكم إصبَعا[١]

ولـكنها نزغاتُ الوُشاةِ أصَابتْ هوًى، فلَوَتْ أخْدَعا[٢]

وليس ملامى على من وشَى ولـكن مَلامى عَلَى من وعَى

أيَجْمُلُ بالعهدِ أن يُستباحَ لواشٍ ، وللوُدِّ أن يُقطعا

فشتَّانَ ما بيننا فى الودا دِ : خلٌّ أضاع وخلٌّ رَعَى[٣]

ومَن أشركَ الناسَ فى أمرِه دعَتْه الضرورةُ أن يُخْدعا

فخذها إليْــك عِتابيَّةً تَرُدُّ عَصِىَّ المُنَى طَيِّعا[٤]

ولولا مكانُك من مُهْجَتِى لَما قلتُ لابنِ عِثارٍ لَعا[٥]

طيف سميرة*

رأى ابنته الوسطى سميرة فى المنام وهو فى منفاه ، فهاجت شوقه ، وأرقت نومه ، وعاودته الذكرى ، واستبد به الحنين فقال :

تَأوَّبَ طَيْفٌ مِنْ سَمِيرةَ زائرُ وَمَا الطَّيفُ إلّا ما تُرِيهُ الخواطِرُ[٦]

---

(١) الواو للقسم ، والحفاظ : الدفاع عن الحرم والمحافظة عليها .

(٢) نزغات : جمع نزغة وهى الإفساد بين الناس وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم . والأخدع : عرق فى جانب العنق قد خفى وبطن وهما أخدعان فى جانبى الرقبة ومن كلامهم لوى فلان أخدعه ، يكنون بهذا عن إعراضه وتكبره .

(٣) شتان : كلمة تفيد البعد . أضاع : المراد أضاع الوداد . ورعى : المراد صان الوداد وحفظه .

(٤) يريد بالعتابية : هذه القصيدة منسوبة إلى العتاب .

(٥) المهجة : النفس أو دم القلب ، والعثار : الزلل . ولعا (كفتى) كلمة يدعى بها للعاثر يقولون : « لعاً لك » إذا أرادوا الدعاء له بالانتعاش . والمراد بابن العثار هنا صديقه الذى يعاتبه كأنه عثر وكبا فهو ينعشه ويرفعه بعتابه .

(*) توفاها الله فى الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٩٥٣

(٦) تأوبه : أتاه ليلا . والطيف : الخيال الطائف فى المنام . يقول : زارنى خيال سميرة فى المنام ، وما الحلم إلا شىء يضطرب فى بال الإنسان ويشتغل به قلبه .

طَوَى سُدْفَةَ الظّلْماءِ والليلُ ضاربٌ ... بِأَرْواقِهِ والنَّجْمُ بالأُفْقِ حَائِرُ[(١)]

فَيَا لَكَ مِنْ طَيْفٍ أَلَمَّ ودُونَه ... محيطٌ مِنَ البحرِ الجنوبىِّ زاخِرُ[(٢)]

تَخطَّى إلىَّ الأرضَ وَجْداً وماله ... سِوَى نَزَواتِ الشَّوْقِ حَادٍ وزاجِرُ[(٣)]

أَلَمَّ وَلَمْ يَلْبثْ وسار وليتَه ... أقَامَ وَلَوْ طَالَتْ عَلَىَّ الدَّيَاجِرُ[(٤)]

تَحَمَّلَ أَهْوَالَ الظَّلَامِ مُخَاطِرًا ... وعَهْدِى بِمَنْ جَادَتْ بِهِ لَا تُخَاطِرُ[(٥)]

خُمَاسِيَّةٌ لَمْ تَدْرِ ما اللَّيْلُ والسُّرَى ... وَلَمْ تَنْحَسِرْ عَنْ صَفْحَتَيْهَا السَّتَائِرُ[(٦)]

عَقِيلَةُ أَتْرَابٍ تَوَالَيْنَ حَوْلَهَا ... كَمَا دَارَ بِالْبَدْرِ النُّجُومُ الزَّوَاهِرُ[(٧)]

غوَافِلُ لا يَعْرِفْنَ بُؤسَ مَعِيشَةٍ ... وَلَا هُنَّ بِالْخَطْبِ الملِمِّ شواعِرُ

تَعَوَّدْنَ خَفْضَ الْعَيْشِ فِى ظِلِّ والدٍ ... رَحِيمٍ ، وبَيْتٍ شَيَّدَتْهُ الْعَنَاصِرُ[(٨)]

تُمَثِّلُهَا الذِّكْرَى لعينى كَأَنَّنِي ... إِلَيْهَا عَلَى بُعْدٍ مِنَ الأرضِ ناظِرُ

فطوراً إخَالُ الظَّنَّ حَقًّا وتارةً ... أَهِيمُ ، فَتَغْشَى مُقْلَتَيَّ السَّمادِرُ[(٩)]

---

(١) السدفة : السترة ، وهى ما يستر به الشىء ، وسدفة الظلماء الشبيهة بالسدفة ، وطواها : سلكها وقطعها . والأرواق : جمع روق وهو الستر ، ومقدم البيت ، والفسطاط . وضرب أرواقه : كناية عن الاستقرار والتمكن . وكنى بحيرة النجم فى الأفق عن شدة الظلام كأنه لا يهتدى.

(٢) يا لك : عجباً لك . ألم : نزل .

(٣) نزوات : وثبات . والحادى : السائق . والزاجر : من زجر البعير أى ساقه .

(٤) الدياجر : جمع ديجور وهو الظلمة .

(٥) يشير بالشطر الثانى إلى أن ابنته صغيرة السن لا تقوى على المخاطرة والأسفار .

(٦) خماسية : بنت خمس سنوات أو طولها خمسة أشبار . صفحتاها : جانبا وجهها . والشطر الثانى : كناية عن تنعمها وصونها وأنها لا تعرف الطريق إلى الشارع .

(٧) العقيلة : كريمة الحى . والأتراب : جمع ترب وهو من كان فى مثل سن الإنسان .

(٨) خفض العيش : سعة المعيشة والحياة الناعمة . والعناصر : المناقب والمفاخر والأصول الكريمة واحدها عنصر وهو الأصل والحسب .

(٩) السمادر : جمع سمدور وهو غشاوة العين وضعف البصر .

فيا بُعْدَ مَا بَيْنِى وَبَيْنَ أَحِبَّتِى ويا قُرْبَ ما الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الضَّمائِرُ(١)

وَلَوْلا أمانِى النَّفْس وَهْىَ حَيَاتُها لَمَا طارَ لِى فَوْقَ الْبَسِيطَةِ طائِرُ

فإنْ تَكُنِ الأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا فَكُلُّ امْرِئٍ يَوْماً إلى الله صَائِرُ

حزن ولوعة

توفيت زوجته وهو فى المنفى بسرنديب فشق عليه نعيها ، فرثاها بهذه القصيدة . وقد كان للوعة الفراق ، وألم الحزن ، وغربة النفى وفداحة المصاب أثر بالغ فى عاطفته ، فسكبها شعراً ملتاعاً ، ويعد البارودى أول من رثى زوجته شعراً فى العصر الحديث . وقليل هم الذين رثوا زوجاتهم فى الشعر القديم . قال :

أَيَدَ الْمَنُونِ قَدَحْتِ أَىَّ زِنَادِ وَأَطَرْتِ أَيَّةَ شُعْلَةٍ بِفُؤَادِى(٢)

أَوْهَنْتِ عَزْمِى وَهْوَ حَمْلَةُ فَيْلَقٍ وَحَطَمْتِ عُودِى وَهْوَ رُمْحُ طِرادِ(٣)

لَمْ أَدْرِ هَلْ خَطْبٌ أَلَمَّ بِسَاحَتِى فَأَنَاخَ أَمْ سَهْمٌ أَصابَ سَوَادِى ؟(٤)

أَقْذَى العيونَ فَأَسْبَلَتْ بِمَدَامِعٍ تَجْرِى على الْخَدَّيْنِ كالْفِرْصَادِ(٥)

مَا كُنْتُ أَحْسَبُنِى أُرَاعُ لِحَادِثٍ حَتَّى مُنِيتُ به فَأَوْهَنَ آدِى(٦)

أَبْلَتْنِىَ الْحَسَراتُ حَتَّى لَمْ يَكَدْ جِسْمِى يَلُوحُ لِأَعْيُنِ الْعُوَّادِ(٧)

---

(١) يريد بقوله : « ما التفت عليه الضمائر » ما تكنه النفوس من الود والشوق .

(٢) الهمزة فى أول هذا البيت : حرف نداء . والمنون المنية . وأى هنا : تفيد التعظيم . والزناد : جمع زند وهو الحديدة أو العود الذى تقدح به النار .

(٣) الفيلق : الجيش . الطراد : الحملة على الأقران فى ميدان القتال .

(٤) السواد هنا : حبة القلب كالسويداء . وكان الأولى أن يستفهم هنا بالهمزة بدل هل .

(٥) أقذى العيون : جعل فيها القذى وهو ما يسقط فى العين فيهيجها . والفرصاد : صبغ أحمر .

(٦) الآد : القوة .

(٧) العواد : جمع عائد وهو من يزور المريض .

أَسْتَنْجِدُ الزَّفراتِ وَهْىَ لَوَافِحٌ   وَأُسَفِّهُ الْعَبَراتِ وَهْىَ بَوَادِى (١)

لَا لَوْعَتِى تَدَعُ الفؤادَ ولا يدى   تقوى على رَدِّ الحبيبِ الْغَادِى (٢)

يا دَهْرُ فيمَ فَجَعْتَنِى بِحَلِيلَةٍ   كانَتْ خُلَاصَةَ عُدَّتِى وعَتَادِى (٣)

إنْ كُنْتَ لَمْ تَرْحَمْ ضَنَاىَ لِبُعدها   أَفَلَا رَحِمْتَ مِنَ الأسى أَوْلَادِى (٤)

أَفْرَدْتَهُنَّ فَلَمْ يَنَمْنَ تَوَجُّعاً   قَرْحَى العُيونِ رَوَاجِفَ الأَكْبَادِ (٥)

أَلْقَيْنَ دُرَّ عُقُودِهِنَّ وصُغْنَ مِنْ   دُرِّ الدُّموعِ قَلَائِدَ الأَجْيَادِ (٦)

يَبْكِينَ مِنْ وَلَهٍ فِرَاقَ حَفِيَّةٍ   كانتْ لَهُنَّ كثيرةَ الإسْعَادِ (٧)

فخدودُهُنَّ مِنَ الدُّموعِ نَدِيَّةٌ   وقلوبُهُنَّ مِنَ الهمومِ صَوادِى (٨)

أسليلةَ الْقَمَرَيْنِ أَىُّ فجيعةٍ   جَلَّتْ لِفَقْدِكِ بَيْنَ هَذَا النَّادِى (٩)

أَعْزِزْ عَلَىَّ بأَنْ أَرَاكِ رهينةً   فى جَوْفِ أَغْبَرَ قَاتِمِ الأَسْدَادِ (١٠)

لو كان هذا الدَّهْرُ يَقْبَلُ فِدْيَةً   بالنَّفْسِ عنك لَكنتُ أَوَّلَ فَادِى

---

(١) استنجد الزفرات : أستعين بها على تخفيف الحزن . ولوافح : محرقة .

(٢) اللوعة : حرقة الحزن وألمه . الغادى : الراحل .

(٣) الحليلة : الزوجة .

(٤) الضنى : مصدر ضنى يضنى أى مرض مرضاً شديداً كلما ظن برؤه نكس .

(٥) أفردتهن : جعلتهن وحيدات والخطاب للدهر . قرحى العيون : مجروحات العيون . ورواجف جمع راجفة أى مضطربة والمراد بالأكباد القلوب ، وكنى برجف أكبادهن عن اضطراب حالهن وما أصابهن من الفزع .

(٦) الأجياد : جمع جيد وهو العنق .

(٧) الوله : الحزن أو ذهاب العقل حزناً . والحفية : صفة على وزن فعيلة بمعنى فاعلة من حفى به حفاوة إذا بالغ فى إكرامه .

(٨) صوادى : جمع صاد أى عطشان .

(٩) النادى : مجلس القوم ومتحدثهم والمراد ناديه ومنزله .

(١٠) الأسداد : جمع سد وهو الحاجز بين الشيئين والمراد الجدران .

أو كانَ يَرْهَبُ صَوْلَةً مِنْ فاتكٍ ... لفعلتُ فِعْلَ الحارثِ بنِ عُبَادِ[1]

لـكنَّها الأقدارُ ليسَ بناجعٍ ... فيها سِوَى التَّسْلِيمِ والإخْلَادِ[2]

فَبِأَيِّ مَقْدِرَةٍ أَرُدُّ يَدَ الأَسَى ... عَنِّى وقَدْ مَلَـكَتْ عِنَانَ رَشَادِى

أفأستعينُ الصَّـبْرَ وَهْوَ قساوةٌ ... أَمْ أَصْحَبُ السُّلْوان وهْوَ تَعَادِى[3]

جَزَعُ الفتى سِمَةُ الوفاءِ وصبرُه ... غَدْرٌ يَدُلُّ به على الأحقاد

أمسيتُ بَعْدَكِ عِبْرَةً لِذَوِى الأسى ... فى يوم كُلِّ مُصيبَةٍ وَحِدَاد

وَرَدَ البريدُ بغـير ما أَمَّلْتُهُ ... تَعِسَ البريدُ وشاهَ وجْهُ الْحَادِى[4]

وَيْـلُمِّهِ رُزْءًا أَطَارَ نَعِيُّهُ ... بالقلب شُعْلَةَ مَارِجٍ وَقَّادِ[5]

عَظُمَتْ مُصيبتُه علىَّ بِقَدْر ما ... عَظُمَتْ لدَىَّ شماتَةُ الحسّـاد

سِرْ يا نسيمُ فبلِّغِ القبرَ الذى ... بِحِمَى الإمام تَحِيَّـتِى وَوِدادى[6]

تاللهِ ما جَفَّتْ دُموعى بعدما ... ذَهَبَ الرَّدَى بكِ يا ابنةَ الأمجاد

لا تَحْسبينى مِلْتُ عنكِ مع الهوى ... هيهاتَ ما تَرْكُ الوفاءِ بِعادِى[7]

---

(١) الحارث بن عباد البكرى : كان من سادات العرب وشعرائهم وأبطالهم فى الجاهلية ومن أيامه المشهورة يوم تحلاق اللمم وفيه انتصر قومه بنو بكر على بنى تغلب فى حرب البسوس المشهورة .

(٢) الإخلاد : الاطمئنان والمراد هنا الإخلاد إلى قضاء الله تعالى وقدره .

(٣) تعادى : تباعد والمعنى : أن الصبر على فراق الأحبة يعد من القساوة وصلابة القلب وجمود العاطفة ، وأن السلو عنهم تباعد عن الوفاق .

(٤) الحادى : الذى يحث الإبل على السير بالغناء لها . ويتخيل أن الرسالة التى وردت إليه نقلتها الإبل على عادة العرب فى ذلك .

(٥) ويلمه : أصلها ويل لأمه ، والويل : العذاب وحلول الشر . والمارج : النار لا دخان لها .

(٦) يريد بالإمام : الإمام الشافعى ويقصد المقبرة الموجودة بجواره .

(٧) بعادى : العاد : جمع عادة أى ترك الوفاء ليس من عاداته .

قد كِدْتُ أَقْضى حَسْرةً لَوْ لم أكن متوقعاً لُقْياك يَوْمَ مَعَادِى[١]
فعليكِ مِنْ قلبى التحيةَ كلما ناحتْ مطوقَّةٌ على الأعوادِ[٢]

محنة واغتراب

شبت الثورة العرابية فى أوائل سنة ١٨٨١ وانتهت باحتلال الإنجليز لمدينة الإسكندرية فى يوليه سنة ١٨٨٢ ، فقبض على زعماء الثورة بعد موقعة التل الكبير ، ونفى معظمهم إلى جزيرة « سرنديب » إحدى جزر الهند وهى من مستعمرات إنجلترا ، وكان البارودى من المنفيين إلى تلك الجزيرة ، وظل فى المنفى سبعة عشر عاماً ، وهن فيها جسمه ، وذهب بصره ، وأدركته الشيخوخة وأصبح كما قال « أشلاء همة فى ثياب » ، وكان كثير التحنان إلى مصر ، والتطلع إلى حريته ، وقد أثر النفى فى حسه المرهف فزاده بؤساً على بؤس ، ومن القطع الرائعة قوله يصف حاله وهو فى المنفى من قصيدة يرثى فيها صديقيه الشيخ حسين المرصفى وعبد الله فكرى وكان نعى الأصدقاء والأحباب له وهو فى منفاه يزيد فى حزنه وشجاه ويفت فى عضده :

كَيْفَ لَا أَنْدُبُ الشَّبابَ وقَدْ أَصْبَحْتُ كَهْلًا فى مِحْنَةٍ واغْتِرَابِ ؟[٣]
أَخْلَقَ الشَّيْبُ جِدَّتى وكَسَانِى خِلْعَةً مِنْهُ رَثَّةَ الْجِلْبَابِ[٤]
وَلَوَى شَعْرَ حاجِبَىَّ عَلَى عَيْنَىَّ حَتَّى أَطَلَّ كالهُدَّابِ[٥]
لَا أَرَى الشَّىْءَ حِينَ يَسْنَحُ إلّا كخيالٍ كَأَننى فِى ضَبَابِ
وَإِذَا مَا دُعِيتُ حِرْتُ كَأَنِّى أَسْمَعُ الصَّوْتَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ
كُلَّما رُمْتُ نَهْضَةً أَقْعَدَتْنِى وَنْيَةٌ لَا تُقِلُّهَا أَعْصَابِى[٦]

---

(١) أقضى حسرة : أموت من الحسرة . ويريد باللقيا اللقاء .

(٢) المطوقة : الحمامة .

(٣) ندب الميت : بكى عليه وعدد محاسنه : والكهل من وخطه الشيب . والمحنة : البلوى .

(٤) أخلق : أبلى وأفنى . وجد الشىء يجد جدة (بكسر الجيم فيهما) : صار جديداً وهو نقيض الخلق (بفتح الخاء واللام) ، والخلعة ، ما تمنحه غيرك من الثياب . ورثة : بالية .

(٥) الهداب : خمل الثوب .

(٦) الونية : اسم مرة من ونى فى الأمر ونيا ضعف وفتر . وتقلها : تحملها .

لَمْ تَدَعْ صَوْلَةُ الحوادثِ مِنِّى غَيْرَ أشـلاءِ هِمَّةٍ فى ثيابِ[١]
فَجَعَتْنِى بوالِدىَّ وأَهْلى ثُمَّ أنْحَتْ تَكُرُّ فى أَتْرابى[٢]
كُلَّ يَوْمٍ يَزُول عَنِّى حبيبٌ يا لِقَلْبى مِنْ فُرْقَةِ الأَحْبابِ

شكوى وفخر

لم يكن البارودى مقدراً للثورة العرابية الإخفاق أول الأمر ، لأن كل أسباب النجاح كانت موجودة ، ولكنه طعن من الخلف بغدر الغادرين الخونة الذين اندسوا فى صفوف الثوار وعرفوا خططهم ثم وشوا بهم ، وتركوهم والمعركة محتدمة . مع أنهم أقسموا الأيمان المغلظة على السير إلى النهاية مع الثوار ، ومع أنهم يعلمون مقدار الفساد المستشرى فى مصر ، وعنجهية الأتراك والشراكسة واستبدادهم وما يلاقيه الفلاحون من عنت الحاكم المستبد من إرهاق فى الضرائب ، وسخرة ، وجلد . ولذلك كان البارودى دائم الشكوى من هؤلاء المنافقين النفعيين ، وكان فى الوقت نفسه يفتخر بشجاعته ، وحرية رأيه ، وثورته على الفساد وإن لاقى فى سبيل مبدئه العذاب الأليم من سجن وقفى وغربة ومرض وشيخوخة ومن ذلك قوله :

لعَمْرى لَقَدْ وَلَّى الشبابُ وحَلَّ بى من الشَّيْبِ خَطْبٌ لا يُطاقُ مَرَدُّه[٣]
فأىُّ نعيمٍ فى الزمانِ أَرُومُه ؟ وأىُّ خليـلٍ للوفاءِ أُعِدُّه
وكيف ألومُ الناسَ فى الغدْرِ بعـد ما رأيت شبابى قَدْ تَغيَّر عَهْدُه[٤]
صحبتُ بَنى الدنيـا طويلاً فَلَمْ أَجِدْ خليلاً،فهلْ منْ صاحبٍ أَسْتَجِدُّه؟[٥]
فأكثرُ مَنْ لاقيْتُ لَمْ يَصْفُ قَلْبُه وأَصْدَقُ من والَيْتُ لم يُغْنِ وُدُّه[٦]

(١) الصولة : السطوة . والأشلاء : جمع شلو (بكسر فسكون) وهو العضو أو بقية الشىء .

(٢) أنحت : أقبلت . والأتراب : جمع ترب (بكسر فسكون) وهو من ولد معك ومن ساواك فى سنك .

(٣) لعمرى : وحياتى . والخطب : الأمر الشديد ينزل بالإنسان .

(٤) إنه لا يلوم الناس فى نقض العهد بعد ما رأى شبابه يصاحبه زماناً ثم يتخلى عنه ويغادره .

(٥) استجده : أصاحبه من جديد .

(٦) واليت : صادقت وأحببت .

أُطالبُ أيَّامِى بما ليس عِندَها ... ومَن طلبَ المعدومَ أَعياهُ وجْدُه (١)

فما كلُّ حَىٍّ ينصرُ القولَ فِعلُه ... ولا كلُّ خلٍّ يَصْدُقُ النَّفسَ وَعْدُهُ

وأَصعبُ ما يَلْقَى الفتى فى زمانه ... صَحابةُ مَن يشْفى مِن الدَّاءِ فَقْدُهُ (٢)

ولِلنُّجْح أَسبابٌ إِذا لم يَفُزْ بها ... لبيبٌ مِن الْفتيانِ لَمْ يُورَ زَنْدُهُ (٣)

وما أنا بالْمغْلُوب دُونَ مَرامِه ... ولـكنه قد يَخْذُلُ المرءَ جَهْدُه

وما أُبْتُ بالِحرْمَانِ إلاّ لأنَّنى ... « أَوَدُّ مِنَ الأيام مالا تَوَدُّهُ » (٤)

أَبَى الدَّهْرُ إلاّ أَن يسودَ وضيعُه ... ويمْـلِكَ أَعناقَ الْمطَالِبِ وغْـدُه

تَدَاعَتْ لِدَرْكِ الثَّأرِ فينا ثُعَالَةٌ ... ونامت على طولِ الوتِيرةِ أُسْدُه (٥)

فحتَّامَ نَسْرى فى دياجِيرِ مِحْنَةٍ ... يَضيقُ بهاعن صُحْبَةِ السَّيْفِ غِمدُهُ (٦)

إِذا المرءُ لَمْ يَدْفَعْ يَدَ الجورِ إن سَطَتْ ... عليهِ فلَا يأسَفْ إذا ضاعَ مَجْدُهُ

ومَنْ ذَلَّ خَوْفَ الموتِ كانت حياتُه ... أَضرَّ عليـه مِن حِمامٍ يَؤُدُّهُ (٧)

---

(١) وجده : إدراكه .

(٢) هذا البيت يتضمن قول المتنبى :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوا له ما من صداقته بد

(٣) الزند العود الذى تقدح به النار وهو الأعلى والزندة السفلى ، ومعنى لم يور زنده : لم يثمر سعيه .

(٤) الشطر الثانى من قول المتنبى فى مطلع قصيدته التى يعارضها الشاعر بهذه القصيدة :

أود من الأيام ما لا توده ... وأشكو إليها بيننا وهى جنده

(٥) تداعت : تجمعت وتألبت بالعداوة . وثعالة : علم جنس للثعلب واستعمله هنا استعمال الجمع . والوتيرة : الثأر .

(٦) السرى : السير ليلا . والدياجير : جمع ديجور وهو الظلام . ومعنى الشطر الثانى : أن هذه المحنة تستفز السيوف من أغمادها .

(٧) الحمام : الموت . ويؤده : ينزل به .

وَأَقْتَلُ داءٍ رؤيةُ الْعَيْنِ ظالماً يُسيءُ ويُتْلَى فى المحافِلِ حَمْدُهُ[١]

عَلامَ يعيش المرءُ فى الدَّهْرِ خاملاً أَيَفْرَحُ فى الدُّنيا بيومٍ يَعدُّهُ ؟[٢]

يَرَى الضَّيْمَ يَغْشَاهُ فَيَلْتَذُّ وَقْعَهُ كَذِى جَرَبٍ يَلْتَذُّ بالْحَكِّ جِلْدُهُ[٣]

عَفَاءٌ على الدُّنْيا إذا المرءُ لم يَعِشْ بها بَطَلاً يحمى الحقيقةَ شَدُّهُ[٤]

مِنَ الْعَارِ أنْ يَرْضَى الْفَتَى بمذلَّةٍ وفى السَّيْفِ ما يَكْفِى لأمْرٍ يَعُدُّهُ

وإِنِّى امرؤٌ لا أَسْتَكِينُ لِصَوْلَةٍ وإنْ شَدَّ ساقِى دُونَ مَسْعَاى قِدُّهُ[٥]

أَبَتْ لِىَ حَمْلَ الضَّيْمِ نَفْسٌ أَبيّةٌ وقَلْبٌ إذا سِيمَ الْأَذَى شَبَّ وَقْدُهُ[٦]

أَصُدُّ عن الْمَرْمَى القريب ترفُّعاً وأَطْلُبُ أَمْراً يُعْجِزُ الطَّيْرَ بُعْدُهُ

---

(١) يعرض البارودى فى هذا البيت بحاكم مصر الطاغية المستبد . يسىء ويظلم ويتلى فى المحافل حمده ، وهذا أثقل داء للنفوس الحرة الكريمة .

(٢) لا ينبغى أن يرضى المرء لنفسه بحياة الضعف والخمول والفرح بعد الأيام ، فى البيت حض على الشجاعة والنباهة وطلب الحياة العزيزة الكريمة .

(٣) الضيم : الظلم . يغشاه : يأتيه . والتذه والتذ به : وجده لذيذاً .

(٤) الحقيقة : ما يحق عليك أن تحميه من شرف وعرض ومال وغيرها .

(٥) أستكين : أخضع . والصولة : السطوة والبطش . والقد : (بالكسر) سير يقد من جلد غير مدبوغ ويقيد به الأسير .

(٦) سيم الأذى : أريد به الأذى يقال سامه خسفاً وذلا أى أراده عليه وأهانه . وشب : اتقد . والوقد: النار .

سجين

اشترك البارودى فى الثورة العرابية ، وكان من قوادها ، وقد حاول حينما تعقدت الأمور أن يعتزل المعركة ، ولكنه لم يستطع وقد سار مع الثوار شوطاً بعيداً ، وأخفقت الثورة ، وقبض على زعمائها ، وأودعوا السجن ومن بينهم البارودى ، وانتهى الأمر بنفيهم إلى جزيرة سيلان . وقد وصف البارودى – وهو الشاعر الحساس – السجن الذى نزل به لأول مرة فى حياته ، وكانت تجربة قاسية مر بها – وهو الذى كان رئيساً للوزارة – ومثل البارودى لا تفوته هذه التجربة دون أن يسجلها فى شعره ، وهذه القطعة التى نقدمها نموذج للأدب الواقعى تكاد تكون صورة دقيقة للسجن من غير أى خيال أو تزويق :

شَفَّنِي وَجْدى ، وأَبْلاَنى السَّهَرْ ... وتَغَشَّتْنِي سَمَادِيرُ الـكَدَرْ (١)

فَسَوادُ اللَّيلِ مَا إنْ يَنْقَضِي ... وَبَيَاضُ الصُّبْحِ ما إن يُنْتَظَرْ

لَا أَنيسٌ يَسْمَعُ الشَّـكْوَى ، ولا ... خَبَرٌ يأتى ، ولا طَيفٌ يَمُرْ

بَينَ جُدْرانٍ وبَابٍ مُوصَدٍ ... كُلَّمَا حَرَّكَهُ السَّجَانُ صَرْ (٢)

يَتَمَشَّي دُونَه ، حَتى إِذا ... لَحِقَتْهُ نَبْأَةٌ مِنِّى اسْتَقَرْ

كُلّما دُرْتُ لأقضِي حاجَةً ... قَالَتْ الظُّلْمَةُ : مَهْلاً لَا تَدُرْ

أَتَقَرّى الشَّيْءَ أَبْغِيهِ فَلاَ ... أَجِدُ الشَّيءَ، ولا نَفْسِى تَقَرْ (٣)

ظُـلْمَةٌ ما إن بها من كَوْكَبٍ ... غَيرُ أَنفَاسٍ تَرَامَى بالشَّرَرْ

فاصْبِرى يَا نَفْسُ حَتَّى تَظْفَرِى ... إنَّ حُسْنَ الصَّبرِ مِفْتَاحُ الظفَرْ

هِيَ أَنفَاسٌ تَقَضَّى ، والْفَتى ... حَيْثُمَا كَانَ أَسِيرٌ لِلْقَدَرْ

---

(١) شفنى : لذع قلبى ، أوهزلنى وأنحلنى . والوجد : الحزن والألم والهم . وأبلانى : هزلنى وأضعفنى . وتغشتنى : جاءتنى ، والسمادير : جمع سمدور وهو غشاوةالعين أو السمادير ضعف البصر ، والمراد بسمادير الكدر : ظلماته وهمومه .

(٢) صر : صوت . واسم ذلك الصوت الصرير .

(٣) أتقرى الشيء : أتتبعه ، والمراد أتلمسه بيدى فى هذه الظلمة الحالكة ، وتقر تستقر وتسكن .

ب ـــ الشاعر السياسى

رأينا فى ترجمة البارودى أنه شغل كثيراً من مناصب الدولة حتى ولى الوزارة ورأسها ، وكانت نزعاته شعبية ، يميل بقلبه وبمبادئه إلى الإصلاح ، وقد حاول أن يوفق بين ولائه للخديو وبين هذه النزعات والمبادئ التى مكنها فى نفسه تعاليم جمال الدين الأفغانى ، ولكن الأمور سارت على غير ما أراد ، وقامت الثورة العرابية ، وخاضها البارودى مع الخائضين ولكن التيار كان شديداً ، وتدخلت إنجلترا وفرنسا فى الأمر ، فأحس البارودى بالخطر ، فنصح لعرابى وإخوانه وصارحهم برأيه وحاول الاعتزال فى مزارعه ، ولكنه كان قد جرى فى الثورة شوطاً بعيداً وفى هذا يقول :

نَصحتُ قَومِى وقلتُ الحربُ مَفْجعَةٌ ... وربما تاحَ أَمْرٌ غير مَظنُونِ

ولعله كان يتوجس خيفة من تدخل الأجانب ، وأن ذلك سيقضى على استقلال مصر ، وسينكل بالثوار ، ولكن هؤلاء لم يستمعوا له :

فخالفونى وشبّوها مكابرةً ... وكان أولَى بقومى لو أطاعونى

حتى إذا لم يَعُدْ فى الأمر مَنْزَعَةٌ ... وأَصْبَحَ الشّرُّ أَمْراً غير مَكنُونِ

أَجَبْتُ إذ هتفوا باسْمى ومنشِيمِى ... صِدْقُ الْوَلاءِ وتحقيقُ الأظانين

ولقد كان فى البارودى طموح ، وكان يود شيئاً لم يستطع الإفصاح عنه ، وكثيراً ما ورد هذا الأمل المكتوم فى خبايا فؤاده فى شعره ولعل هذا الطموح هو الذى دفعه فى أحضان الثورة مع رغبته الملحة فى الإصلاح . ولقد خلد الثورة ومواقفه منها فى شعره ، ولم يكف عن الحديث عنها حتى بعد أن نفى ، تارة يسوغ موقفه ، وينفى عن نفسه تهمة التآمر على خلع الخديو ، وأنه لم يكن يريد إلا الإصلاح وتارة يهدد ويتوعد ، وتارة يلوم هؤلاء الذين خذلوه إبان المعركة ، فتجمع من كل ذلك مجموعة صالحة من الشعر السياسى ، كلها حماسة وصدق وتصوير للواقع .

فمن هذه القصائد السياسية قوله يعرض برياض باشا الذى لم يرتح لنزعاته الشعبية حين ولى البارودى وزارة الأوقاف وصار يشجع المطالبين بالدستور فنحاه توفيق عن الوزارة . وفى هذه القصيدة يذم الدس والمكايد ، والسياسة ومحترفيها ، وماجنته على مصر ، ويحرض على الثورة ويدعو لنفسه :

إنى امرؤٌ كَفَّنى حلمى وأَدَّبنى ... كَرُّ الجديدَيْن من ماضٍ ومُقتبَلِ(١)

---

(١) الجديدان : الليل والنهار .

فما سَرَيتُ قِناعَ الحلم عن سفهٍ ... ولا مَسَحْتُ جَبين العزِّ من خجل [١]

حَلَبتُ أَشْطُرَ هـذا الدهرِ تجربةً ... وَذُقتُ ما فيه من صَابٍ ومن عَسَل [٢]

فما وجَـدتُ على الأيامِ باقيةً ... أَشهى إلى النَّفس من حُرِّيَّة العمل

لـكنَّنا غرضٌ للشرِّ فى زمَنٍ ... أَهلُ العقول به فى طاعة الْخَمَلِ [٣]

قامت به من رِجالِ السوء طائفةٌ ... أدهَى على النفس من بُؤسٍ على ثَكَل [٤]

مِن كلِّ وغْدٍ يَكادُ الدَّستُ يدفعه ... بُغضاً ويَلفِظُه الدِّيوانُ من مَلَلِ [٥]

ذَلَّت بهم مصرُ بعد العز واضطربت ... قواعِدُ المُلك حتى ظَلَّ فى خَلل

وأصْبَحَت دولةُ الفسطاط خاضِعةً ... بعد الإباء وكانت زَهْرةَ الدُّول [٦]

بئس العشيرُ وبِئست مصر من بلدٍ ... أَضْحَت مُناخاً لأهل الزُّور والخطَلِ [٧]

أرضٌ تأثَّلَ فيها الظلمُ وانقذَفَتْ ... صواعقُ الغدرِ بين السَّهل والجبل [٨]

وأَصْبح النـاسُ فى عمْياءَ مُظلمةٍ ... لمْ يَخْطُ فيها امرؤٌ إلاّ على زلَل [٩]

---

(١) سرا عنه الثوب : كشفه ، وسرا ثوبه عنه سروا : كشفه كذلك . ويريد أنه ما غضب عن جهل وطيش بل عن روية وحكمة ، ولم يأت ما يخجل منه ويندى له جبينه العزيز فيمسحه .

(٢) الأشطر : جمع شطر وهو خلف الناقة (ضرعها) والأصل شطران ، ولكنه أحل الجمع محل المثنى وهو جائز فى اللغة . وقد حلب أشطره : أى قاسى الشدائد والرخاء وتصرف فى الفقر والغنى . الصاب : المر .

(٣) الخمل : جمع خامل . غرض : هدف .

(٤) الثكل : فقد الولد .

(٥) الوغد : الأحمق الرذل الدنىء . الدست : صدر البيت والمجلس وهى فارسية معربة ، واستعملها المتأخرون بمعنى الديوان ، ومجلس الوزارة والرئاسة وهو يريد هنا رياض باشا وكان رئيساً للوزارة التى خرج منها البارودى .

(٦) دولة الفسطاط : مصر .

(٧) المناخ : مبرك الإبل . الخطل : الخفة والحمق والمنطق الفاسد .

(٨) تأثل : تأصل .

(٩) العمياء : اللجاجة فى الباطل . الزلل : مصدر من زل إذا انزلق فى الطين ونحوه .

لَمْ أَدرِ ما حلّ بالأبطال منْ خَوَرٍ بعد المِرَاس و بالأسْيَاف مِن فَلَلِ [١]

أَصَوَّحَتْ شَجَراتُ المَجد أَمْ نَضَبَتْ غُدْرُ الْحَمِيَّةِ حتى ليس من رجلِ [٢]

لا يدفعون يداً عنهم ولو بَلَغتْ مَسَّ العفَافةِ مِنْ جُبنٍ ومن خَزلِ [٣]

فما لَكم لا تعاف الضَّيْمَ أنفسكم ولا تزولُ غواشيكم من الكَسَلِ [٤]

إن لم يكنْ لِلْفَتى عقلٌ يعيشُ به فإنما هُو معدودٌ من الهَمَلِ [٥]

فبادروا الأمرَ قبلَ الْفَوت وانتزعوا شِكالَةَ الرَّيْثِ فالدُّنيا مع العَجَلِ [٦]

وقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ شَهماً أخا ثِقَةٍ يكون رِدْءاً لكم فى الحادث الجَلَلِ

مَاضى البصيرةِ غَلَّابٌ إذا اشتبهت مَسَالكُ الرَّأى صادَ البَازَ بالْحَجَلِ [٧]

إن قالَ بَرَّ وإن ناداه مُنتصرٌ لَبَّى وإنْ هَمَّ لم يَرْجِعْ بلا نَفَلِ [٨]

يجلو الْبَديهَةَ باللَّفظِ الوجيز إذا عَزَّ الخطابُ وطاشتْ أسهم الجَدَلِ [٩]

---

(١) الخور : الضعف والجبن ، والمراس : شدة المعالجة وكثرة التجربة ، والفلل : الانثلام فى حد السيف .

(٢) صوحت : يبست وجفت . وغدر : جمع غدير وهو فى الأصل القطعة من الماء غادرها السيل ويقصد به هنا الجدول ومجرى الماء .

(٣) العفافة : مصدر عف يعف إذا كف عما لا يحل ولا يجمل . والخزل : انكسار الظهر ، والانخزال فى المشى التثاقل .

(٤) الضيم : الظلم والذل : وغواشيكم : جمع غاشية وهى ما يغشى الإنسان أى ينتابه . ومن الكسل : بيان .

(٥) من الهمل : من بمعنى فى : والهمل : جمع هامل أى ضال ومهمل لا راعى له .

(٦) شكالة : يريد شكال وهو العقال تقيد به الدابة ، ولا يوجد شكالة فى المعاجم . والريث : الإبطاء . يحرضهم على السرعة .

(٧) الباز : الصقر أو نوع منه . والحجل : نوع من الطيور الضعيفة ويريد أنه يستطيع حل الأمور المعقدة بقليل من الحيلة .

(٨) النفل : الغنيمة والجمع أنفال .

(٩) البديهة : الأمر الذى يبده الإنسان أى يفاجئه .

ولا تَلِجُّوا إذا ما الرأىُ لاَحَ لكم ... إنّ اللجاجَةَ مَدْعاةٌ إلى الْفشل[١]

قَدْ يُدرِكُ المرء بالتّدبير ما عَجَزَت ... عَنهُ الْكماةُ ولَمْ يحْمِلْ عَلَى بطَل[٢]

وطالبوا بحقوقٍ أَصبحت غرضاً ... لِكلٍّ مُنتزعٍ سَهْماً ومُختَتِل[٣]

ولا تخَافوا نَكالاً فيه مَنْشَأُكُمْ ... فالحوتُ فى اليم لا يخشى من البَلَل[٤]

عَيْشُ الفتى فى فِناءِ الذّلِّ مَنْقَصَةٌ ... والموتُ فى العِزِّ فَخْرُ السّادة النُّبل[٥]

لا تتركُوا الجِدَّ أو يبدُو اليقينُ لَكم ... فالجِدُّ مِفتَاحُ بَابِ المطلب الْعَضُل[٦]

حتى تعودَ سماءُ الأَمْنِ ضَاحِيَةً ... ويرفُل العدلُ فى ضَافٍ مِنَ الحلَل[٧]

هَذِى نصيحةُ مَنْ لا يَبْتَغِى بَدَلاً ... بِكُمْ وهَلْ بعد قَوْمِ المرءِ مِن بدل

تحريض على الثورة

فيا قَوْمِ هُبوا إنما الْعُمرُ فُرْصةٌ ... وَفى الدَّهرِ طُرْقٌ جمّةٌ وَمنَافِعُ

أَصَبْراً على مَسِّ الْهوانِ وأنتمُ ... عديدُ الحصى ؟ إنِّى إلى الله راجعُ

وَكيفَ تَرَونَ الذُّلَّ دارَ إقامةٍ ... وَذلكَ فَضْلُ اللهِ فى الأَرْض واسعُ

أَرى أَرْؤساً قد أَيْنَعَتْ لِحصادها ... فَأَيْنَ ـ ولا أَيْنَ ـ السُّيوفُ القواطعُ[٨]

---

(١) الفشل : الهزيمة .

(٢) الكماة : جمع كمى وهو الفارس المدجج بالسلاح أو الشجاع .

(٣) مختتل : الذى يتسقط الأسرار . ومنتزع السهم : الذى يرمى الصيد بالسهم .

(٤) النكال : العقوبة . وفيه منشأكم : أى أنكم نشأتم فى النكال .

(٥) النبل : ذوو النبل .

(٦) أو : هنا بمعنى إلى . والعضل : العسير الصعب .

(٧) رفل فى الثوب : مشى فيه اختيالا .

(٨) أرؤس : جمع رأس . وأينعت : نضجت وحان قطافها ، أى الرءوس على تشبيهها بالثمار . ومعنى أينعت لحصادها أنها نضجت وآن لها أن تحصد .

فكونُوا حصيداً خامدين ، أو افزَعُوا ... إلى الحربِ حتى يَدْفَعَ الضَّيْمَ دافعُ[١]

أَهبتُ ، فعاد الصَّوتُ لم يَقضِ حاجةً ... إلىَّ ولبَّانِى الصَّدى وَهْو طائعُ

فلم أدرِ أَنَّ اللهَ صَوَّرَ قبلكم ... تماثيلَ لم يُخلقْ لهُنَّ مَسامعُ

فلا تَدعُوا هذِى القلوبَ فإنها ... قَوَاريرُ محنىٌّ عليها الأَضالعُ[٢]

أسباب الثورة

تَنكَّرَتْ مِصرُ بَعْدَ العُرفِ واضطربت ... قواعِدُ الملكِ حتى رِيعَ طائِرُه[٣]

فَأَهمَلَ الأَرضَ جَرَّا الظُّلْمِ حَارثُها ... واسْترجعَ المالَ خوفَ العُدمِ تاجِرُه[٤]

واستحكمَ الهولُ ، حتى ما يَبيتُ فتى ... فى جَوْشَنِ الليلِ إلّا وهْو ساهِرُه[٥]

وَيْلُمِّهِ سَكناً ، لولا الدَّفينُ به ... من المآثرِ ما كُنَّا نُجاوِرُه[٦]

أَرضى بهِ غيرَ مَغْبوطٍ بِنعمتهِ ... وفى سِواهُ المُنى لولا عَشائِرُه[٧]

---

(١) حصيداً : محصوداً .

(٢) يسخر منهم فى هذا البيت ، ويشبه قلوبهم بالقوارير فى الضعف .

(٣) تنكرت : تغيرت عن حال تسرها إلى حال تكرهها ، والعرف : ضد النكر ، وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه . وريع : أفزع ، وارتياع طائر الملك : كناية عن تزعزعه واضطرابه ، واختلال الأمن ، وشيوع الفوضى والفساد .

(٤) جرا الظلم : من جراء الظلم وبسببه أى أن الفلاح والزارع هجر الأرض لكثرة الضرائب والقسوة فى تحصيلها ، كما أن التاجر كف عن التجارة واسترجع ماله المتداول فى السوق .

(٥) جوشن الليل : وسطه أو صدره .

(٦) ويلمه : أصلها ويل لأمه ، ثم أضيف ويل إلى الأم ، وويل كلمة عذاب وشر . الدفين : المدفون . والمآثر : جمع مأثرة وهى المكرمة . ويريد بالدفين من المآثر : مكرمات آبائه وأجداده وآثارهم الصالحة . ويريد بالسكن مصر .

(٧) مغبوط : من الغبطة ، وهى أن تتمنى مثل حال المغبوط من غير أن تريد زوالها ، والغبطة أيضاً : حسن الحال والمسرة .

يا نفسُ لا تَجْزَعِى فالخيرُ مُنْتظَرٌ ... وصاحبُ الصبرِ لا تبْلَى مَرَائرُه[١]

لَعلَّ بُلْجَةَ نُورٍ يُسْتضاء بها ... بَعدَ الظلامِ الذى عَمَّتْ دياجِرُه[٢]

إنى أرى أنفساً ضاقت بما حَملتْ ... وسوف يَشهرُ حَدَّ السَّيف شاهرُهُ

شَهْرانِ أو بَعضَ شَهرٍ إن هى احتدمتْ ... وفى الجديدَين ما تُغْنِى فواقرُه[٣]

فإن أصبتُ فَعَنْ رأْىٍ مَلَكْتُ به ... عِلْمَ الْغُيوب ، ورأْىُ المرء ناظِرُه[٤]

بعد الثورة

لقد خاض البارودى غمار الثورة ، وكان زعيما من زعمائها ، ولكن بعض رؤساء الجند خانوا الثوار ، وكانوا مثلا زريا فى النفاق وعلى الرغم من أيمانهم المغلظة فقد حنثوا فيها ، وقد وصف البارودى هذه المأساة ، وحاول أن يبرئ نفسه ، ويعلل لهزيمته ويصف تخاذل هؤلاء المنافقين وجبنهم وفرارهم من المعركة ، ويتندم على زعامته لهم :

أضعتُ زمانى بينَ قومٍ لو أنَّ لى ... بهمْ غيرَهمْ ما أرْهقتنِى البَوائقُ[٥]

فإنْ أكُ مُلقِى الرَّحلِ فيهم فإنَّنى ... لهمْ بالخلالِ الصَّالحاتِ مُفَارِقُ[٦]

معاشرُ سارُوا بالنِّفاقِ ومالهمْ ... أُصولٌ أَظَلَّتهَا فرُوعٌ بواسِقُ

---

(١) المرائر : جمع مريرة وهى عزة النفس والعزيمة .

(٢) البلجة : الضوء ، أو ضوء الصبح يقال : رأيت بلجة الصبح إذا رأيت ضوء آخر الليل عند انصداع الفجر . والدياجر : جمع ديجور وهو الظلمة .

(٣) (أو) هنا بمعنى الواو . . . والجديدان : الليل والنهار ويريد الدهر . والفواقر : جمع فاقرة وهى الداهية .

(٤) رأى المرء ناظره : أى أن الإنسان يتعرف برأيه الثاقب حقائق الأشياء وخفايا الأمور كأنه ينظر إليها بعينيه .

(٥) البوائق : جمع بائقة وهى الداهية والنازلة والشر الشديد وفى الحديث : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » .

(٦) ملقى الرحل فيهم : كناية عن إقامته بينهم ومعنى هذا البيت قريب من بيت المتنبى :

وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام

فأعلمُهُمْ عندَ الخصومةِ جاهلٌ　　وأتقاهمُ عندَ العفافةِ فاسِقُ(١)

طلاقةُ وجهٍ تحتها الغيظُ كاشِرٌ　　ونغمةُ وُدٍّ بينها الغدرُ ناعِقُ

وأخْلاقُ صِبيانٍ إذا ما بلوْتَهُمْ　　عَلِمْتُ بِأَنَّ الجهلَ فى الناسِ نافِقُ(٢)

دعوْنِى إلى الُجلَّى ، فقُمْتُ مُبَادِراً　　وإنِّى إلى أمثالِ تلك لَسابقُ(٣)

فلمَّا استمرَّ الجِدُّ ساقُوا حُمُولَهم　　إلى حيثُ لم يبلُغْهُ حادٍ وسائقُ(٤)

فلا رَحِمَ اللهُ امْرأً باعَ دينه　　بدُنْيا سِواهُ وهْوَ للحقِّ رامِقُ(٥)

عَلَى أَنَّنى حذَّرْتهمْ غبَّ أَمرِهم　　وأَنذَرْتهمْ لوْ كان يفقهُ مائِقُ(٦)

وقلتُ لهمْ كفُّوا عنِ الشرِّ تغنمُوا　　فللشَّرِّ يومٌ ـ لا محالةَ ـ ماحِقُ(٧)

فظنوا بقولى غيرَ ما فى يقينه　　على أَنَّنى فى كلِّ ما قلتُ صادِقُ

فهلْ علمُوا أَنِّى صدعتُ بحجَّتى　　وقدْ ظهرتْ بعدَ الخفاءِ الحقائقُ(٨)

فتبًّا لهمْ منْ معشرٍ ليسَ فيهمُ　　رَشيدٌ، ولا مِنهمْ خليلٌ مصادِقُ(٩)

ظننتُ بهمْ خيراً فأُبتُ بحسرةٍ　　لها شجَنٌ بينَ الجوانحِ لاصِقُ(١٠)

فياليتنى راجعْتُ حلمى ولم أكنْ　　زعيماً ، وعاقتنى لذاكَ العوائقُ

---

(١) العفافة : الكف عما لا يحل ولا يجمل كالعفاف .

(٢) نافق : رائج ومنتشر .

(٣) الجلى : الأمر الشديد والخطب العظيم .

(٤) الحمول : الإبل التى عليها الهوادج ، وسوق الحمول هنا : كناية عن التخاذل والفرار . وحاد : اسم فاعل من الحدو وهو الغناء للإبل .

(٥) رامق : من رمقت الشيء أطلت إليه النظر .

(٦) غب أمرهم : عاقبة : أمرهم . مائق : أحمق .

(٧) ماحق : مهلك .

(٨) صدعت بالحجة : بينتها وأظهرتها . والاستفهام فى البيت للتوبيخ .

(٩) تبا لهم : هلاكاً وخسراناً .

(١٠) الشجن : الحزن .

ويا ليتنى أصبحتُ فى رأسِ شاهِقٍ ... ولم أرَ ما آلتْ إليه الوثائقُ(١)

همُ عرَّضونى للقنا ثم أعرَضوا ... سراعاً ولم يطرُق من الشَّر طارق

وقدْ أقسموا ألاَّ يزُولوا فما بدا ... سنا الفجرِ إلا والنساء طوالقُ

مضوْا غيرَ معذورينَ لا النَّقعُ ساطعٌ ... وَلا البيضُ فى أيدى الكماةِ دَوالقُ(٢)

ولكنْ دعتهمْ نبأةٌ فتفرَّقوا ... كما انقضَّ فى سربٍ من الطير باشِقُ(٣)

فكم آبقٍ تلقاهُ منْ غيرِ طاردٍ ... وكم واقفٍ تلقاهُ والعقلُ آبِقُ(٤)

إذا أبصروا شخصاً يقولون جحفلٌ ... وجُبنُ الفتى سيفٌ لعينيه بارِقُ(٥)

أسودٌ لدى الأبياتِ بينَ نسائهمْ ... ولكنهمْ عندَ الهياجِ نقَانقُ(٦)

إذا المرء لم يَنهضْ بقائم سيفه ... فياليتَ شعرِى كيف تُحمى الحقائقُ(٧)

---

(١) رأس شاهق : قمة جبل عال . والوثائق : جمع وثيقة وهى إحكام الأمر والأخذ فيه بالثقة ويريد العهود والمواثيق .

(٢) النقع : الغبار ويراد به هنا ما تثيره سنابك الخيل وحركات المتحاربين من الغبار ، وكذلك الدخان المنبعث من بعض القذائف والمدافع . ساطع : مرتفع ثائر . والبيض : السيوف . والكماة : جمع كمى وهو الفارس المدجج بسلاحه أو فى كامل عدته . ودوالق : جمع دالق : من دلق السيف دلوقاً خرج من غمده والمعنى أنهم تركوا ساحة الوغى ، وفروا من ميدان القتال بلا عذر قبل أن يجد الجد ، ويحمى الوطيس ، ويستحر بينهم وبين أعدائهم الجلاد والقتال .

(٣) نبأة : صوت . والسرب : الجماعة من الطير والظباء والوحش والخيل والحمير والنساء وغيرها . والباشق : طائر من الجوارح أى الطيور التى تجرح وتفترس والمعنى : أنهم سمعوا صوتاً ضعيفاً ، فاستولى عليهم الفزع ، وتملكهم الخوف ، وتفرق جمعهم كما يتفرق الطير إذا انقض عليها جارح من الجوارح .

(٤) آبق : هارب .

(٥) الجحفل : الجيش الكبير .

(٦) النقانق : جمع نقنق (بكسر فسكون) وهو ذكر النعام ويضرب به المثل فى الجبن وسرعة الفرار .

(٧) قائم السيف : مقبضه . وليت شعرى : ليتنى أشعر وأعلم . والحقائق : جمع حقيقة وهى ما يلزمك حمايته والدفاع عنه من أهل وعرض وغيرها .

ذكريات الثورة

نفى البارودى إلى جزيرة «سرنديب» عقاباً على اشتراكه فى الثورة ، وكان له أعداء بمصر ، واتهموه بأنه ثار لخلع الخديو توفيق حتى يطيلوا مدة نفيه، فأخذ يبرر ثورته ويذكر الأسباب التى دعته للثورة ، من الظلم والفساد المنتشر ، واستبداد الحاكم والنفاق وغير ذلك ، ويحمل على هؤلاء الأدنياء الذين رضوا بالذل ونافقوا ، وباعوا وطنهم رخيصاً فى سبيل شهواتهم . وهذه القصيدة تبين لنا نفسية البارودى على حقيقتها ، كما تبين لنا العوامل الحقيقية التى أدت إلى الثورة العرابية .

كفى بمقامى فى «سرَنديبَ» غربةً ... نزعتُ بها عنى ثيابَ العلائقِ (١)

ومنْ رامَ نيلَ العزِّ فليصطبرْ على ... لِقَاء المنايا ، واقتحامِ المضايقِ

فإن تكنِ الأيامُ رَنَّقْنَ مَشرَبى ... وثَلَّمْنَ حدِّى بالخطوبِ الطوارِقِ (٢)

فما غيَّرتنى مِحنةٌ عنْ خليقتى ... وَلا حوَّلتنى خُدعةٌ عنْ طرائقى (٣)

ولكنَّنى باقٍ على ما يَسُرُّنى ... ويُغضبُ أعدائى ، ويُرْضى أَصادِقي

فحسرَةُ بُعْدى عنْ حبيبٍ مُصادقٍ ... كفرْحةِ بُعْدى عنْ عدُوٍ مُماذِقِ (٤)

فتلكَ بهذى والنَّجاةُ غنيمةٌ ... منَ الناسِ ، والدُّنيا مكيدةُ حاذِقِ

ألا أيها الزَّارِى عَلَىَّ بجهله ... ولم يدْرِ أَنِّى دُرَّةٌ فى المفارِقِ (٥)

تعزَّ عنِ العلياَء باللؤْمِ واعْتزِلْ ... فإنَّ العُلا ليستْ بلغوِ المناطِق

فما أَنَا مِمَّنْ تقبلُ الضَّيمَ نفسُه ... ويرْضى بِما يرْضي به كلُّ مَائِقِ (٦)

---

(١) العلائق : الصلات والروابط .

(٢) رنقن : كدرن . وثلمن : فللن وكسرن .

(٣) الخليقة : الطبيعة ، والطرائق : جمع طريقة وهى المذهب .

(٤) مماذق : غير مخلص من ماذق فى الوداد أى كذب ونافق .

(٥) الزارى : المستهزئ والعائب . ودرة فى المفارق : يقصد أنه مشهور رفيع المقام .

(٦) مائق : أحمق غبى .

إذا المرءُ لم ينهضْ لما فيه مجدُه ... قضى وَهْو كَلٌّ فى خُدور العواتِقِ [١]

وأىُّ حياةٍ لامرئٍ إن تنكرَت ... لهُ الحالُ لم يعقدْ سُيورَ المناطقِ [٢]

يقولُ أُناسٌ إننى ثُرْت خالعاً ... وتلكَ هَناتٌ لم تكنْ من خَلائقى [٣]

ولكننى ناديتُ بالْعدلِ طالباً ... رضا الله واستنهضتُ أَهْلَ الحقائقِ [٤]

أمرتُ بمعروفٍ ، وأنكرْتُ منكراً ... وذلك حكمٌ فى رِقابِ الخلائقِ

فإنْ كان عصياناً قيامى فإنَّنى ... أَردْتُ بعصيانى إطَاعةَ خالقى

وهلْ دَعوةُ الشُّورى عَلَىَّ غضاضةٌ ... وفيها لِمن يَبْغى الهدَى كلُّ فارِقِ [٥]

بَلى إنها فرْضٌ منَ اللهِ واجبٌ ... على كلِّ حَىٍّ منْ مسوقٍ وسائِقِ [٦]

وكيفَ يكونُ المرء حُرًّا مهذبًا ... ويرضى بما يأتى به كلُّ فاسقِ

فإن نافقَ الأقوامُ فى الدِّين غَدرةً ... فإنِّى بحمدِ اللهِ غيرُ مُنافقِ

---

(١) كل : ثقيل لا خير فيه وعالة على سواه . والعواتق : جمع عاتق وهى الشابة أول ما أدركت أو الفتاة التى لم تتزوج .

(٢) المناطق : جمع منطق أو منطقة وهو كل ما شددت به وسطك ومثلها النطاق وقريب منه الحزام، وعقد سيور المناطق : كناية عن الاستعداد للأمر .

(٣) خالعاً : خارجاً عن الطاعة . وهنات : خصال سوء وأخطاء . وخلائقى : طبائعى .

(٤) الحقائق : جمع حقيقة وهى ما يحق عليك أن تحميه وتدافع عنه .

(٥) فارق : المراد من يفرق بين الحق والباطل .

(٦) يريد بالمسوق : المحكوم ، وبالسائق : الحاكم .

ج — الشاعر الوصاف

وصفُ غيضة

وقال البارودى يصف غيضة احتلها فى قندية بجزيرة كريت أيام الحملة التى أرسلها إسماعيل لمعاونة الخليفة فى قمع الثوار . وهذه القطعة تدل على إعجاب البارودى بالجمال ، وبالمناظر الطبيعية ، وعلى شدة حساسية بمفاتن الوجود* :

ومُرْتبَعٍ لُذْنَا به غِبَّ سُحْرَةٍ ... وللصُّبْحِ أنفاسٌ تزيدُ وتنقصُ[1]

وقد مال للغرب الهلالُ ، كأنه ... بمنقارِه عن حَبَّة النجم يَفْحصُ[2]

رقيق حواشى النَّبْتِ ، أمَّا غصونهُ ... فرَيَّا ، وأمَّا زهرُه فمُنَصَّصُ[3]

إذا لاعَبَتْ أفنانَهُ الريحُ خِلْتَها ... سلاسِلَ تُلْوَى، أو غدائرَ تُعْقَصُ[4]

(*) الغيضة : الأجمة ، ومجتمع الشجر فى مغيض ماء . قندية إحدى مدن جزيرة كريت .

(١) المرتبع : المكان الذى يرتبع فيه القوم ، أى يقيمون به زمن الربيع ، ولذنا به : لجأنا إليه ، وغب : بعد . والسحرة : آخر الليل قبل الصبح وزيادة أنفاس الصبح ونقصانها : كناية عن طلوع الفجر ، وتردده بين ظلمة الليل وضياء النهار .

(٢) يفحص : يبحث وبابه (منع) . وفى هذا البيت إشارة إلى أن الليلة التى يصفها كانت فى آخر الشهر العربى ، وقد يسمى القمر لليلتين من آخر الشهر هلالا ، كما يسمى لليلتين من أوله هلالا ، وقد رجح كونه فى آخر الشهر هنا أن الهلال ظل حتى الصباح قبل أن يغرب . وحبة النجم : النجم الشبيه بالحبة ، فلما شبه الهلال بالطائر ، ورمز إليه بالمنقار حسن تشبيه النجم بالحبة ، وفى تشبيه الهلال بالطائر يقول على بن محمد الكاتب :

بدا مستدق الجانبين كأنه ... على الأفق الغربى مخلب طائر

ولاح لمسرى ليلتين كأنما ... تفرق منه الغيم عن إثر حافر

(٣) رقيق : صفة لمرتبع فى البيت الأول ، وحواشى النبت : جوانبه وأطرافه ، وريا : مؤنث ريان صفة من الرى والمراد أنها غضة ناضرة . ومنصص : ظاهر مرفوع ، بعضه فوق بعض .

(٤) خلتها : ظننتها والضمير يعود على الأفنان ، والغدائر : جمع غديرة وهى الذؤابة من الشعر إذا كانت مرسلة غير ملوية ولا معقوصة ، تعقص : تضفر ، وقريب من المعنى الذى أراده البارودى قول صفى الدين الحلى :

وكأنما الأغصان سوق رواقص ... قد قيدت بسلاسل الريحان

كأنَّ صحافَ الزَّهر والطَّلُّ ذائبٌ ... عيونٌ يسيلُ الدمْعُ منها وتشْخَصُ (١)

يكادُ نسيمُ الفجرِ إنْ مرَّ سُحْرَةً ... بساحتِه الشجراءِ لا يَتخلَّصُ (٢)

كأنَّ شعاعَ الشمس والريحُ رَهْوةٌ ... إذا رُدَّ فيه سارق يتربَّصُ (٣)

يَمُدُّ يداً دونَ الثمارِ ، كأنما ... يحاولُ منها غايةً ، ثم يَنْكُصُ (٤)

عطَفْنا إليهِ الخيلَ فَلَّ مَسيرَةٍ ... وللقومِ طَرْفٌ منْ أذَى السُّهْدِ أخْوَصُ (٥)

فما أبصرتهُ الخيلُ حتى تمطَّرَتْ ... بفرْسانِها،واستَتْلَعَتْ كيف تخْلُصُ (٦)

---

(١) الصحاف : آنية الطعام التي يؤكل فيها ، الواحدة صحفة وهي أصغر من الجفنة ، وقد شبه الشاعر الزهر بالصحاف ، والطل : الندى وقطرات الماء التي تسقط على أوراق الشجر والزهر في الصباح . تشخص : تنفتح ، ولا تطرف (وبابه خضع) . وأنت ترى أنه شبه أوراق الزهر بالصحاف ، ثم شبه هذه الصحاف وعليها الندى بالعيون المفتوحة الممتلئة بالدموع .

(٢) ساحته : ناحيته ، أي المرتبع ، والشجراء : الكثيرة الشجر . يصفه بكثافة أشجاره كثافة لا يستطيع أن يتخلص منها نسيم السحر مع رقته .

(٣) الرهو : الرقيق ، والسير السهل الخفيف ، ورد فيه : رجع : أي الشعاع ، والمراد تردد ، والضمير المجرور يعود على المرتبع ، ويتربص : ينتظر والمعنى : أن أشعة الشمس تسقط على غصون هذا المرتبع فتهزها الريح اللطيفة الهينة فتتحرك الأشعة بتحرك الغصون ، فتنفذ من خلالها مرة ، وتحجب أخرى ، كأنها لص يتردد بين الإقدام والإحجام . وقد وصف المتنبي هذه الأشعة التي تنفذ من خلال الأغصان ثم تختفي بأنها (دنانير تفر من البنان) ، وقد قال صفي الدين الحلي في الظل الذي يروح ويجيء تبعاً لاهتزاز الأشجار : (والظل يسرق بين الدوح خطوته) .

(٤) يمد : يريد الشعاع . ويحاول : من المحاولة وهي طلب الشيء بالحيلة . وينكص : يحجم ويرجع ويتأخر .

(٥) عطفنا إليه الخيل : أملناها إليه ، يريد المرتبع ، وفل مسيرة : منفلة منثلمة متعبة من السير (حال للخيل) ، والقوم : الجند . الطرف : العين ، وأخوص : ضيق صغير غائر من السهر والسهد . يعني أنهم مالوا إلى هذا المرتبع وخيولهم متعبة ، والجند قد أجهدهم السفر والسهر فعيونهم غائرة .

(٦) تمطرت : أسرعت وجرت ، واستتلعت : ليس بالمعجمات التي بين أيدينا استتلعت وإنما بها تلع ، إذا مد العنق متطاولا ، وزيادة الهمزة والسين والتاء قياسية عند بعض الصرفيين ، فمعنى استتلعت : طلبت وحاولت مد أعناقها . والمعنى : أن هذه الخيل ما كادت تبصره حتى أسرعت إليه مرحة نشيطة ، ومدت أعناقها لترى كيف تخلص إليه ، وتغدو مسرعة عليه .

مَدى لحظةٍ حتّى أتته وماؤهُ على زَهْرِه ، والظِّلُّ لا يَتقلَّصُ[1]

فمدَّتْ به الأعناقَ تعطو وتَختلى نِهابًا، وتُغْلِى فى النباتِ وتُرْخِصُ[2]

أَقَمْنَا به شمسَ النهارِ ، وكلُّنَا على مابهِ من شِدَّةِ العُجْبِ يَحْرِصُ[3]

فلمَّا استردَّ الشمسَ جُنْحٌ من الدُّجى وأعرضَ تَيْهورٌ من الليلِ أعوصُ[4]

دعَوْنَا بأسماءِ الجيادِ فأقبلتْ لواعبَ فى أرسانِها تترقَّصُ[5]

وقُمْنَا وكلٌّ بعدَ ما كانَ لاهيًا بأظْلالِهِ كُرْهَ الرحيلِ مُنَغَّصُ[6]

فَلِلَّهِ عَيْنًا من رأى مِثْلَ حسنه وما أنا فيما قُلْتُه أتخرَّصُ[7]

---

(١) مدى لحظة : المدى الغاية ويريد أن الخيل قد وصلت إليه فى زمن قليل جداً قدره مدى لحظة ، وماؤه على زهره : أى أتته وقت الصباح قبل إشراق الشمس وذهاب الندى ، ويتقلص : ينزوى ويتقبض . وظله لا يتقلص : أى ظل دائم وارف .

(٢) به : بالمرتبع . تعطو : تتناول . وتختلى : تقطع الخلى وتأكله وهو العشب الرطب الرقيق ، أما إذا يبس فهو الحشيش . والنهاب : جمع نهب (بفتح فسكون) ، وهو الغنيمة أو مصدر ناهب وهو منصوب على الحال أى ناهبة . وإغلاؤها وإرخاصها فى النبات : كناية عن تصرفها فيه ، وتقلبها فى نواحيه فهى ترتع وتأكل كما شاءت .

(٣) إننا أقمنا بذلك المرتبع طول النهار ، وكل منا يحرص على ما فى نفسه من الإعجاب بهذا المرتبع .

(٤) استرد الشمس : طلب ردها والمراد أخفاها وغيبها . والجنح : الطائفة والجانب . والدجى جمع دجية وهى الظلمة . وأعرض : ظهر . والتيهور : موج البحر المرتفع ، والمراد ظلمات الليل على التشبيه . وأعوص : صعب شديد . وهو يصف إدبار النهار وإقبال الليل بظلماته وأهواله .

(٥) دعونا : جواب لما فى البيت السابق . والجياد : كرام الخيل جمع جواد . ولواعب : جمع لاعب أو لاعبة . وأرسانها : أزمتها وأعنتها الواحد رسن (بفتحتين) وهو الحبل . وتترقص : ترقص وترتفع وتنخفض فى لعب ومرح .

(٦) يقول : وقمنا من ذلك المرتبع وكل واحد منا مكدر بسبب كراهيته للرحيل ، ومغادرة هذا المكان الجميل ، بعد ما كان لاهياً فى ظلاله .

(٧) للهعينا : تركيب يفيد المدح والتعجب . لأن الشىء يكمل ويعلو قدره ، ويعظم شأنه إذا نسب إلى الله مصدر الكمال والعظمة والجلال . وأتخرص : أكذب والمعنى : من رأى مثل حسن ذلك المرتبع فلله عيناه ؛ لأنه رأى ما يبهج ويسر ويعجب ، ولست كاذباً فيما قلته ووصفته به من الحسن والروعة وفى رواية (فلله عينا من أرى مثل حسنه) أى أرى غيره .

ظَفِرْتُ به فى حِقْبَةٍ ، فقَنَصْتُه على غِرَّةِ الأَيَّامِ واللهوُ يُقْنَصُ[(١)]

وصف الريف فى الربيع

كان البارودى يجد فى ريف مصر الراحة والهدوء ، والمجال العذب ، وكثيراً ما فر إليه من متاعب السياسة ودنيا الجهاد ، يجد د نشاطه و يتزود من نعيمه وفيه يقول :

دنيا نعيمٍ تكاد زهرتهـا تُزْرِى على الشمس وهى مُزْدهره

وقد وصفه فى قصائد شتى ، مما يدل على شغف بالطبيعة فى مختلف مظاهرها : وعلى محبة صادقة لمصر : فإن الإعجاب يولد الحب ، وكان البارودى من المعجبين بجمال الطبيعة المصرية . والقطعة التى اخترناها هنا تمثل منظراً من مناظر الريف ، وهى تسجيل سريع لهذا المنظر فى موسيقية عذبة :

عَمَّ الْحَيَا واسْتَنَّتِ الجـداولُ وفاضَتِ الغُدْرانُ والمَنَاهِلُ[(٢)]

وازَّيَنَتْ بِنَوْرِهـا الخمـائلُ وَغَرَّدَتْ فِى أَيْكِها الْبَلَابِلُ[(٣)]

وَشَمِلَ الْبِقَاعَ خَـيْرٌ شَامِلُ فَصَفْحَةُ الأَرْضِ نباتٌ خَائِلُ[(٤)]

وَجَبْهَةُ الْجَوِّ غَمَامٌ حافِلُ وَبَيْنَ هٰذَيْنِ نَسِيمٌ جائِلُ[(٥)]

تَنْدَى به الأَسْحارُ والأَصَائِلُ كَأَنما النَّبَاتُ بَحْرٌ هائِلُ[(٦)]

---

(١) به : أى بالمرتبع . والحقبة : المدة من الزمن . وقنصته : صدته . وعلى غرة : على غفلة .

(٢) الحيا : المطر . واستنت : من استن الماء انصب والمراد هنا نشطت . والجداول : جمع جدول وهو النهر الصغير . والغدران : جمع غدير وهو فى الأصل قطعة من الماء غادرها السيل والمراد هنا الجداول ومجارى المياه . والمناهل : جمع منهل وهو الموضع الذى فيه المشرب .

(٣) النبات : اسم شامل لكل ما تنبته الأرض من شجر وزرع وغيره . وخائل : ذو خيلاء أى معجب بنفسه من خال الرجل فهو خائل .

(٤) حافل : ممتلىء بالماء . وجائل : يدور هنا وهناك ويطوف بكل مكان .

(٥) تندى به : تأتى به أى أنه يهب فى الأسحار والأصائل . والأسحار : جمع سحر : وهو الوقت قبيل الفجر وفيه يكون الهواء رقيقاً لطيفاً . والأصائل : جمع أصيل وهو قبل غروب الشمس . وهائل : عظيم .

وَلَيْسَ إلا الأكماتُ ساحِلُ ... وشامخُ الدَّوْحِ سَفِينٌ جافِلُ[(١)]

مُعْتَدِلٌ طَوْراً وطَوْراً مائِلُ ... تَهفو به الجنوبُ والشمائِلُ[(٢)]

والباسِقَاتُ الشُّمَّخُ الحوامِلُ ... مَشْمُورةٌ عَنْ سُوقِها الذَّلاَذِلُ[(٣)]

مَلْوِيَّةٌ فِى جِيدِها العَثاكِلُ ... مَعْقُودةٌ فِى رَأْسِها الفَلاَئِلُ[(٤)]

لِلْبُسْرِ فيها قانئٌ وناصِلُ ... مُخَضَّبٌ كَأَنَّه الأَنامِلُ[(٥)]

كأنَّهُ مِنْ ذَهَب قَنَادِلُ ... مِنَ العَراجِين لها سَلاَسِلُ[(٦)]

لِلْمَنْجنون بَيْنَها أَزَامِلُ ... تَخَالُها مَحْزُونةً تُسَائِلُ[(٧)]

لَهَا دموعٌ ذُرَّفٌ هَوامِلُ ... كَأَنَّها أمُّ بَنِينَ ثَاكِلُ[(٨)]

---

(١) الأكمات : جمع أكمة وهى التل . والدوح : جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة من أى نوع ، وجافل : مضطرب ومتحرك .

(٢) تهفو به : تميل به وتحركه . والجنوب والشمائل : الريح التى تهب من جهة الجنوب ، والريح التى تهب من جهة الشمال . والشمائل : جمع شمال على غير قياس .

(٣) الباسقات : يريد بها النخل الطويلة . الشمخ : المرتفعة . الحوامل : جمع حامل وهى الشجرة المثمرة ، والذلاذل : هى فى الأصل أطراف القميص السفلى ، ويريد هنا أن ساق النخلة عار من الجريد والسعف .

(٤) الجيد : العنق : والعثاكل : جمع عثكول وهو العذق أو الشمراخ وهو فى النخل بمنزلة العنقود فى العنب . والفلائل : جمع فليلة وهى الشعر المجتمع ويريد أعلى النخلة وأطراف الجريد .

(٥) البسر : البلح لون ولم ينضج . وقانىء : شديد الحمرة . وناصل : من نصل الشعر إذا زال عنه الخضاب ، ويريد به البلح الذى تشوبه حمرة .

(٦) القنادل : جمع قنديل وهو المصباح والقياس قناديل ولم يسمع قنادل . والعرجون : أصل العذق الذى يعوج وتقطع منه الشماريخ فيبقى على النخل يابساً .

(٧) المنجنون : يريد بها هنا الساقية . الأزامل : الأصوات المختلطة جمع أزمل (كجعفر) بينها : الضمير يعود على باسقات .

(٨) ذرف : سائلة وهو جمع ذارف وذارفة ولم نره فى مماجم اللغة والمعروف الذوارف وربما قاسه على ركع وراكع ، وهوامل : جمع هامل وهاملة من هملت العين وفاض دمعها ، والسماء دام مطرها فى سكون وضعف . والثاكل : المرأة فقدت ولدها .

فِى جِيدِها مِنْ ضَفْرِهـا حَبَائلُ مِنَ القَوادِيس لهـا جَلاَجِلُ(١)
تَدورُ كالشُّهْبِ لَهَا منازِلُ فصاعِدٌ وَدافِقٌ ونَازِلُ(٢)
والمـاء ما بَين الغِيَاض سائلُ تَحْنُو عَلَى شُطَّانه الغَيَاطِلُ(٣)
كأنهـا حوائمٌ نَوَاهِــلُ والطيرُ فى أَفْنَانِها هَوادِلُ(٤)

يصف ليلة مطيرة

وقال البارودى من قصيدة قالها وهو فى منفاه بسرنديب ، يتذكر فيها أيامه الخوالى ، وكيف كان يقود جيشه ، والكل يطيعه ، ويسيرون حيث يسير .

إن سرتُ ساروا و إن أصْعَد إلى نَشَزٍ كانوا صعوداً ،و إنأَهْبِطْ بهمهَبَطُوا(٥)

وأنه على الرغم من ضعف منته وشيخوخته لا يزال فيه قوة ، وكم يود أن يعود مثل ذلك اليوم الذى هطلت فيه السماء وهو فى جنده فلاذوا بغيضة يحتمون بها . ولعله كان يتذكر تلك الأيام التى قضاها فى جزيرة « كريت » . وقد كان بها فرحاً ، لأنها أشبعت نفسه ، وحققت أمله فى الجندية وكانت أول حملة خرج إليها وهو فى ريعان الصبا وغضارة الشباب ، فطبعت فى ذاكرته مناظر وذكريات لا تمحى على مر السنين :

---

(١) فى جيدها : الجيد العنق ، والضمير يعود على الساقية ، وضفرها : شعرها المنسوج ، ويقصد الحبال الغليظة التى تربط بها القواديس والحبائل : جمع حبل على غير قياس . والقياس حبال . من القواديس : بيان لجلاجل مقدم عليه، والقواديس : جمع قادوس وهو إناء من خزف أصغر من الجرة واسع الفم يخرج به الماء من الساقية . الجلاجل : جمع جاجل (بضم الجيمين) وهو الجرس الصغير .

(٢) تدور : تسير فى دائرة . كالشهب : يريد بها النجوم السيارة . ومنازل : أماكن مقدرة مثل منازل القمر والشمس .

(٣) الغياض : جمع غيضة وهى الأجمة ومجتمع الشجر فى مغيض الماء . وشطانه : جمع شط وهو ضفة النهر . والغياطل : جمع الغيطلة وهى جماعة الشجر الملتف .

(٤) الحوائم : جمع حائمة وهى التى تدور حول الشىء . ونواهل : جمع ناهلة وهى التى نهلت الماء فرويت . والأفنان جمع فنن وهو الغصن . وهوادل : جمع هادلة من الهديل وهو صوت الحمام .

يصف الأشجار وهى تميل على الماء بأنها كالطيور بعضها يحوم حول الماء ولم تصل إليه بعد ، وبعضها قد نهل منه وروى ، والطيور تصدح فوق أغصانها ، أى أن بعض فروع الشجر قد مس الماء وبعضه لم يمسه وهو فى تحركه بفعل الهواء والنسيم يشبه الطير الحائم .

(٥) النشز : المرتفع من الأرض .

وَلَيْلَةٍ ذَاتِ تَهْتَانٍ وَأَنْدِيَةٍ | كأنَّما البرقُ فيها صارمٌ سَلِطُ[١]
لفَّ الغَمامُ أقاصيها ببُرْدَتِهِ | وانهلَّ مِنْ حَجْرَتَيْها وابلٌ سَبِطُ[٢]
بَهْماءُ لا يَهْتَدى السَّارِى بكوكبها | من الغمامِ ، ولا يبدو بها نَمَطُ[٣]
يكادُ يَجْهَلُ فيها القومُ أَمْرَهُمُ | لولا صهيل جيادِ الخيلِ واللَّغَطُ[٤]
يَطْغَى بها البرقُ أحياناً فيزجُرُهُ | مُخْرَنْطِمٌ زَجِلٌ مِنْ رَعْدِها خَمِطُ[٥]
كأنما البرقُ سوطٌ والحَيَا نُجُبٌ | يَلُوحُ فى جِسْمِها مِنْ مَسِّهِ حَبَطُ[٦]

---

(١) التهتان : مطر ضعيف دائم : وأندية : جمع ندى وهو البلل . والصارم : السيف القاطع . والسلط الذى لا نتوء فى نصله . يصف الليلة بأنها دائمة المطر والبلل كثيرة البرق ، وكأن البرق سيف قاطع لا انثلام فى نصله فهو ماض سريع القطع .

(٢) أقاصيها : المراد هنا أطراف السماء وآفاقها . والبردة : كساء يلتحف به . وانهل : انصب وسال بشدة . وحجرتاها : ناحيتاها . ووابل : مطر غزير شديد . وسبط : شديد متدارك والمعنى : أن هذه الليلة قد لف الغمام فيها أطراف السماء من كل ناحية ، وأخذ ينصب المطر بشدة وعنف وتدارك .

(٣) بهماء : سوداء مظلمة ، وهى صفة لليلة ، والسارى : السائر ليلا . والنمط : الطريق . و « من الغمام » فى الشطر الثانى : تعليل لعدم اهتداء السارى بكوكبها . وهو يصف الليلة بأنها حالكة السواد ، وبأن الغمام فيها مطبق كثير متراكم .

(٤) اللغط : الأصوات المختلطة المبهمة والجلبة . وجياد الخيل : كرامها . والمعنى : أن المرء يكاد لا يرى أخاه ، فيجهل أمره ومكانه لشدة الظلمة واحتجاب النجوم وراء السحاب المتراكم بل يكاد يحسب نفسه وحيداً لولا ما يسمع من صهيل الخيل ، وجلبة المعسكر .

(٥) يطغى : يزيد ويعظم ويشتد . يزجره : ينهاه وينهره ، مخرنطم : غضبان وهو اسم فاعل من اخرنطم الرجل رفع أنفه واستكبر وغضب . زجل : عالى الصوت . ومن رعدها : بيان لزجل . خمط : غضوب .

وهو يعلل لصوت الرعد القوى الشديد بأنه ينهر البرق حين يزيد ويكثر ، وكأن الرعد رجل غضبان يزجر غيره بشدة وعنف .

(٦) السوط : الذى يجلد به كالمقرعة ونحوها . الحيا : المطر والمراد السحب . النجب : كرام الخيل والإبل وعتاقها وجيادها واحدها نجيب . يلوح : يبدو ويظهر . مسه : بسبب مسه وأذاه وضره ، أى السوط . الحبط : آثار السياط بالبدن أو الآثار الوارمة التى لم تشقق .

جعل البرق وهو يبدو متألقاً فى السحاب كالسوط تضرب به النجائب ، لما يشاهد فى كلا الحالين من حركة سريعة متوالية متقطعة ، وجعل ما يظهر من غلظ السحب وتراكمها فى بعض نواحى السماء كآثار السياط فى أجسام هذه النجب .

كأنه صارمٌ يرفَضُّ مِنْ عَلَقٍ ... بالأُفْقِ يُغمَدُ أحْيَانًا ويُخْتَرَطُ[١]

مَزَّقْتُ جِلبَابَها بالخَيْلِ طالِعَةً ... مِثْلَ الحمائمِ فى أجيادِها العُلُطُ[٢]

وقَدْ تَخَلَّلَ خَيْطُ النُّورِ ظُلْمَتَهَا ... كما تَخَلَّلَ شَعْرَ اللِّمَةِ الوَخَطُ[٣]

كأنَّها وصَديعُ الفَجْرِ يَصْدَعُها ... من جانبٍ أدْهَمٌ قَدْ مَسَّهُ نَبَطُ[٤]

ومَرْبَعٍ لنسيمِ الفَجْرِ هَيْنَمَةٌ ... فيهِ وللطيرِ فى أرجائه لَغَطُ[٥]

كأنمـا القَطْرُ درٌّ فى جوانِبه ... يَكادُ مِنْ صَدَفِ الأزهار يُلتَقَطُ[٦]

---

(١) الصارم : السيف القاطع . يرفض : يسيل ويقطر ويتفرق . العلق : الدم . يغمد : يدخل فى غمده . يخترط : يسل ويجرد من غمده . شبه البرق فى طوله ولمعانه وتفرق الحمرة فى جوانبه بسيف قاطع يقطر منه الدم . ثم جعل ظهور البرق واختفاءه كتجريد السيف وإغماده .

(٢) مزقت جلبابها : يريد أنه سار فى ظلمائها فى سرعة ومضاء . أجيادها : أعناقها جمع جيد (بكسر الجيم) . والعلط : جمع علاط وهو من الحمامة طوقها فى صفحتى عنقها بسواد ، والعلاط أيضاً ، حبل يجعل فى عنق البعير ونحوه .

يقول : إنه مزق جلباب هذه الليلة ، وشق ثيابها بالخيل طالعة كالحمائم فى خفتها وسرعة جريها ، ثم شبه ما يكون فى أجيادها من المقاود والأعنة بأطواق الحمائم ، والمعنى : أنه ركب وسافر فى هذه الليلة المظلمة الماطرة . وتشبيه الخيل بالطير فى سرعتها قديم جداً ومن ذلك قول النابغة الذبيانى :

والخيل تمزع غرباً فى أعنتها ... كالطير فاجأها الشؤبوب ذو البرد

(٣) خيط النور : كناية عن بياض الصبح واللمة : ما جاوز شحمة الأذن من شعر الرأس . والوخط : الشيب القليل . والبيت وصف لطلوع الفجر فى تلك الليلة .

(٤) كأنها : أى الليلة . والصديع : الفجر لأن الليل ينصدع أى ينشق عنه ، والصديع أيضاً : انصداع الصبح أى انتظاره وانفلاقه . ويصدعها : يشقها . وأدهم : فرس أسود . والنبط بياض بطن الفرس . يقول : كأن هذه الليلة ونور الفجر يشقها من بعض جوانبها فرس أدهم فى بطنه بياض .

(٥) المربع : الموضع الذى يرتبع فيه القوم ، أى يقيمون به زمن الربيع . والهينمة : صوت كأنه كلام خفى لا يفهم ، أو قراءة غير بينة . والأرجاء : جمع رجا وهو الناحية . واللغط : الجلبة والأصوات المختلطة .

(٦) القطر : يريد به الندى وقطرات الماء التى على أوراق الشجر والزهر . والدر : اللآلىء . والصدف : المحار . وصدف الدرة : المحار الذى يشتمل عليها ويغطيها . شبه القطر والندى المتناثر على جوانب هذا المربع بالدر فى صفائه ونقائه ولمعانه ، وجعل الأزهار المشتملة على الندى صدفاً لذلك الدر وغلافاً ، ثم أغرق فى التشبيه فقال : إن هذا الندى يكاد يؤخذ ويلتقط من صدف الأزهار .

وللنسيمِ خِلَالَ النبتِ غَلْغَلَةٌ   كما تَغَلْغَلَ وَسْطَ اللِّمَةِ المُشُطُ[١]

والريحُ تمحو سطوراً ثُمَّ تُثْبِتُهَا   فى النَّهْرِ لا صِحَّةٌ فيها ولا غَلَطُ[٢]

وللسماءِ خيوطٌ غيرُ واهيةٍ   تكادُ تُجْمَعُ بالأيدى فَتَرْتَبِطُ[٣]

كأنَّها وأكفُّ الريحِ تَضْرِبُها   سُلوكُ عِقْدٍ تواهت فهى تَنْخَرِطُ[٤]

فالضّوءُ مُحْتَبِسٌ والماءُ مُنْطَلِقٌ   والجوُّ مُنْقَبِضٌ ، والظِّلُّ مُنْبَسِطُ[٥]

لُذْنَا بأطرافِهِ والطيرُ عاكفةٌ   عَلَيْهِ ، والنورُ بالظَّلْماءِ مُخْتَلِطُ[٦]

---

(١) خلال النبت : بينه ووسطه وحواليه . وغلغلة : إمعان وسرعة ، وتغلغل : دخل . واللمة : الشعر المجاور شحمة الأذن والمراد هنا شعر الرأس مطلقاً . يقال : إن النسيم يتغلغل خلال النبات ، كما يتغلغل المشط وسط الشعر .

(٢) لا صحة فيها ولا غلط : لأنها ليست كتابة ، فلا توصف بصحة ولا غلط . وفى هذا البيت يصف ما تحدثه الريح بمياه الجداول والأنهار ، فهى تثبت على سطح الماء موجات خفيفة هادئة تشبه سطور الكتابة ، ثم تمحو ما أثبتته ، وهكذا دواليك ، على أنها ليست كتابة بالمعنى المعروف حتى توصف بالصحة أو الغلط .

(٣) خيوط السماء : يريد بها ما تساقط وتتابع من مطرها كالسلوك ، واهية : ضعيفة . وترتبط : تربط وتشد .

(٤) كأنها : أى الأمطار الشبيهة بالخيوط والأسلاك ، والسلوك : الخيوط . والعقد : القلادة . وتواهت : بليت وضعفت ولم نجد (تواهت) فى المعجمات التى بين أيدينا . وتنخرط : تنتثر وتتفرق ، مطاوع خرط الرجل الشجر ، إذا انتزع الورق منه اجتذاباً . يصف خيوط المطر حين تضربها الريح فتتناثر بسلوك القلادة إذا بليت وانقطعت فتناثرت حباتها على الأرض .

(٥) محتبس : محجوب . ومنقبض : كدر غير صاف ، ومنبسط : ممدود . يريد أن الجو كان معتما كدراً . والشمس يحجبها الغمام الكثيف ، والمطر ينساب بشدة ، والظل ممتد لا أثر فيه للشمس وضوئها . وفى هذا البيت كما ترى طباق بين محتبس ومنطلق ، وبين منقبض ومنبسط ومثل هذا النوع قليل فى شعر البارودى ، وهو لا يتعمده فى الغالب .

(٦) لذنا به : لجأنا إليه ، بأطرافه : أى بنواحى المربع . عاكفة عليه : مقبلة مقيمة به لنضرته . ويشير باختلاط النور بالظلماء إلى أنهم لجئوا إلى هذا المربع فى مطلع الفجر .

وصف طائر

وقال البارودى يصف طائراً قد وقف على غصن أيكة قلقاً ، فزعاً ، حذراً ، وكان البارودى قد أخذته سنة من النوم ، فأيقظته حركة الطائر القلق ، فوصف هذا المنظر ، وحاول أن يتعرف على نفسية هذا الطائر ، ويكشف عن سر قلقه . وهى قطعة تدل على شاعرية سامية ، وعلى قدرة فائقة فى التصوير ، وعلى الدقة فى تسجيل أدنى مظاهر الطبيعية ؛ وذلك من فرط الحساسية ، والشعور المرهف :

وَنَبْأَةٍ أَطْلَقَتْ عَيْنَىَّ مِنْ سِنَةٍ ... كانَتْ حُبالَةَ طَيْفٍ زارَنى سَحَرَا (١)

فَقُمْتُ أَسْأَلُ عَيْنِى رَجْعَ ما سَمِعَتْ ... أُذْنى ، فَقَالَتْ : لَعَلِّى أَبْلُغُ الخَبَرَا (٢)

ثُمَّ اشْرَأَبَّتْ ، فَأَلْفَتْ طائراً حَذِراً ... على قَضِيبٍ يُدِيرُ السَّمْعَ والبَصَرَا (٣)

مُسْتَوْفِزاً يَتَنَزَّى فَوْقَ أَيْكَتِهِ ... تَنَزِّىَ الْقَلْبِ طَالَ الْعَهْدُ فادَّكَرَا (٤)

لا تَسْتَقِرُّ لَهُ ساقٌ عَلَى قَدَمٍ ... فَكُلَّما هَدَأَتْ أَنْفَاسُهُ نَفَرَا (٥)

يَهْفُو به الْغُصْنُ أَحْياناً وَيَرْفَعُهُ ... دَحْوَ الصَّوَالِجِ فى الدَّيْمُومَةِ الأُكَرَا (٦)

---

(١) النبأة : الصوت الخفى . والسنة : النعاس . والحبالة : المصيدة . والطيف : الخيال الطائف فى المنام . والسحر : الوقت قبيل الفجر .

(٢) رجع : مصدر رجعت إليه الشىء (من باب قطع) أى رددته . يقول : فانتبهت فسألت عينى أن ترد إلى ما سمعته أذنى أى تدلنى على مصدر ذلك الصوت الذى نبهنى ، فأجابتنى بأنها ترجو أن تبلغ خبره وتنقل إلى حقيقة أمره . والمعنى : أنه لما سمع ذلك الصوت الذي نبهه وأيقظه جعل يبحث بعينيه عن مبعثه .

(٣) اشرأبت : ارتفعت . وألفت : وجدت . قضيب : غصن .

(٤) مستوفزاً : غير مطمئن ، قد تهيأ للوثوب والطيران . ويتنزى : يثب . والأيكة : الشجرة ذات الأغصان الكثيرة الملتفة يقول : إن هذا الطائر غير مطمئن ولا مستقر ، ولكنه يتنقل ويثب فوق أيكته وثوب قلب الإنسان طال عليه العهد بفراق أحبابه ، فتذكرهم فخفق واضطرب .

(٥) هذا الطائر قلق لا يستقر فى مكانه ، ولا تكاد تهدأ أنفاسه حتى يفزع وينفر إلى مكان آخر .

(٦) يهفو : يميل ويهتز . والدحو : مصدر دحا اللاعب الكرة دفعها ورماها بيده . والصولجان : عصا معوجة يعطف طرفها وتضرب بها الكرة ، وجمعه صوالجة . والديمومة : الأرض المستوية . والأكر : جمع أكرة ، وهى الكرة التى يلعب بها .

والمعنى : أن الغصن يميل بهذا الطائر . ويهتز بين انخفاض وارتفاع ، كرمى الكرات بالصوالجة فى الأرض المستوية ، ودحو الصوالج من إضافة المصدر إلى فاعله . والأكر مفعوله .

ما بالُهُ وَهْوَ فى أَمْنٍ وعافِيَةٍ لا يَبْعَثُ الطَّرْفَ إلا خائفاً حَذِرَا ؟

إذا علا باتَ فى خَضْراءَ ناعِمَةٍ وإنْ هَوَى وَرَدَ الْغُدْرَانَ أو نَقَرَا[1]

وصف الحصان والسيف

كان البارودى – كما نعلم – فارساً شجاعاً خاض غمرات الحرب مرات ، وكان محباً للخيل الجياد شأن الفرسان الشجعان ، فلا بدع إذا رأيناه يصف الفرس، ويصف السيف ، وهما حليفاه فى المعركة ، فيقول من قصيدة طويلة يصف فيها الفرس والسيف :

فَقَدْ أسِيرُ أمَامَ الْقَوْمِ ضَاحِيَةً والْجَوُّ بالباتِرَاتِ البِيضِ مُشْتَعِلُ[2]

بِكُلِّ أشْقَرَ قَدْ زَانَتْ قَوائِمَهُ حُجُولُه غَيْرَ يُمْنَى زَانَهَا العَطَلُ[3]

كأنه خَاضَ نَهْرَ الصُّبْحِ فانْتَبَذَتْ يُمْنَاهُ وانْبَثَّ فى أعْطَافِهِ الطَّفَلُ[4]

زُرْقٌ حَوَافِرُهُ سُودٌ نَوَاظِرُهُ خُضْرٌ جَحَافِلُهُ فى خَلْقِهِ مَيَلُ[5]

كَأَنَّ فى حلقِهِ ناقوسَ رَاهِبَةٍ باتَتْ تُحَرِّكُهُ أو رَاعِدٌ زَجِلُ[6]

---

(١) هوى : سقط ونزل على الأرض . والغدران : جمع غدير وهو جدول الماء ، وفى الأصل الغدير هو القطعة من الماء غادرها السيل . ونقر الطائر الحبة . التقطها بمنقاره .

(٢) ضاحية : علانية . والجو ما بين السماء والأرض والجمع جواء بكسر الجيم . والباترات : السيوف القاطعة .

(٣) الأشقر : من الحيوان ما كان لونه أحمر . وقوائمه : يداه ورجلاه . وحجوله : من التحجيل وهو بياض فى قوائم الفرس كلها أو بعضها . العطل : ليست بها حلية التحجيل فهو محجل بثلاث فقط .

(٤) انتبذت : بعدت وتنحت ناحية . وأعطافه : جمع عطف (بكسر العين) ، وهو الجانب ، والطفل : له معان كثيرة منها احمرار الشفق عند الغروب يريد أن الحمرة قد انتشرت على جوانبه .

(٥) نواظره : عيناه جمع ناظرة . والجحافل : جمع جحفلة وهى من الفرس والحمار ونحوهما بمثابة الشفة من الإنسان . ميل : انحراف ويريد به انحراف العنق .

(٦) زجل : ذو جلبة وصوت مرتفع وهو خاص بالتطريب .

يَمُرُّ بالْوَحْشِ صَرْعَى فى مَكامِنِها فمَا تَبينُ لَهُ شَدًّا فتَنْخَذِلُ (١)
يَرَى الإشَارَةَ مِنْ وَحْيٍ فَيَفْهَمُهَا ويَسْمَعُ الزَّجْرَ مِنْ بُعْدٍ فَيَمْتَثِلُ (٢)
لاَ يَمْلِكُ النَّظْرَةَ الْعَجْلاَءَ صَاحِبُها حَتَّى تَمُرَّ بِعِطْفَيْهِ فَتَحْتَبِلُ (٣)
إنْ مَرَّ بالْقَوْمِ حَلُّوا عَقْدَ حَبْوَتِهم واسْتَشْرَفَتْ نَحْوَهُ الألْبابُ والمُقَلُ (٤)
تَقُودُهُ بِنْتُ خَمْسٍ فهُوَ يَتْبَعُها ويَسْتَشِيطُ إذا هَاهَا بِهِ الرَّجُلُ (٥)
أَمْضِى به الْهَوْلَ مِقْدَاماً وَيَصْحَبُنِى مَاضِى الغِرَارِ إذا مَا اسْتَفْحَلَ الْوَهَلُ (٦)
يَمُرُّ بالْهَامِ مَرَّ الْبَرْقِ فى عَجَلٍ وَقْتَ الضِّرابِ وَلَمْ يَعْلَقْ به بَلَلُ (٧)
تَرَى الرِّجَالَ وُقُوفاً بَعْدَ فَتْكَتِهِ بِهِمْ يُظَنُّونَ أحْيَاءً وَقَدْ قُتِلُوا (٨)
كَأَنَّهُ شُعْلَةٌ فى الكَفِّ قَائِمَةٌ تَهْفُو بها الرِّيحُ أحْيَاناً وتَعْتَدِلُ (٩)

---

(١) صرعى: ملقاة على الأرض ويريد هنا أنها مطمئنة فى مكامنها لا تخاف الأعداء. وتبين: مضارع بان بمعنى ظهر واتضح وقد استعمله الشاعر هنا بمعنى تتبين وهو مضارع تبين الشيء: أى شهده واضحاً جلياً. وله: بمعنى منه، وشدا: عدوا. فتنخذل: حتى تنخذل وتهزم وتفر. يريد أن يقول: إن الوحوش الآمنة فى مكانها لا تلمح عدوه حتى تفر.

(٢) يمتثل: يطيع، ويرى الأشارة من وحى: يرى الإشارة الخفية أى يفهم بالإيحاء.

(٣) العجلاء: يريد العجلى أى السريعة ولم ترد العجلاء فى معاجم اللغة. صاحبها: أى صاحب النظرة. بعطفيه: بجنبيه. فتحتبل: تقع فى الحبالة وهى المصيدة. ومعنى البيت: أن من يلقى عليه نظرة عاجلة سريعة لا يكاد يرى وجهه لسرعته وإنما تقع نظرته على جانبى الفرس.

(٤) الحبوة: أن يجلس الإنسان القرفصاء ويجمع بين ظهره ورجليه بعمامة أو ثوب أو يشد على رجليه بيديه. استشرفت: تطلعت، والمقل: جمع مقلة وهى حدقة العين. وحل عقد حبوته: كناية عن الاهتمام.

(٥) بنت خمس: أى خمس سنوات. يستشيط: يحتدم ويخف ويتحرق شوقاً إلى العدو. وهاها به: دعاه وزجره.

(٦) الغرار: حد الرمح والسيف. وماضى الغرار: السيف القاطع. واستفحل: اشتد والوهل: الفزع.

(٧) الهام: جمع هامة وهى الرأس. ولم يعلق به بلل: كناية عن سرعة قطعه.

(٨) البيت كله كناية عن مضاء السيف وشدة سرعته فى الفتك.

(٩) تهفو: تميل.

لَوْلاَ الدِّمَاءُ التى يُسْقَى بها نَهَلاً ... لَكَادَ مِنْ شِدَّةِ اللَّأْلاءِ يَشْتَعِلُ(١)

يَفُلُّ ما بَقِيَتْ فى الكَفِّ قَبْضَتُهُ ... كُلَّ الحديد وَلَمْ يَثْأَرْ به فَلَلُ(٢)

وصف الحرب

أعلنت روسيا فى سنة ١٨٧٧ الحرب على تركيا ، وتبعتها رومانيا ثم الصرب والجبل الأسود ، وبلغاريا ، وقد أرسلت مصر جيشاً لمعاونة الخليفة العثمانى فى هذه الحرب ، وكان البارودى من قواد هذا الجيش ، ولكن الحرب انتهت بهزيمة تركيا ، وعقد معاهدة « سان استيفانو » فى مارس ١٨٧٨ ، وبهذه المعاهدة نالت رومانيا والصرب والجبل الأسود استقلالها ، ومنحت بلغاريا استقلالا إدارياً ، وأخذت روسيا باطوم وأرزن وقارص .

وقد وصف البارودى بعض المعارك التى خاضها فى تلك الحرب ، ووصف ساحة القتال ، وأهل البلاد التى وقعت فيها المعارك ومما يقوله فى وصف تلك الحرب من قصيدة طويلة :

وأصْبَحْتُ فى أرْضٍ يحارُ بها القطا ... وتَرْهَبُها الجِنَّانُ وَهْيَ سَوارِحُ(٣)

بَعِيدَةُ أقطار الدَّيامِيمِ ، لَوْ عَدا ... سُلَيْكٌ بها شَأْواً قَضَى وهو رازِحُ(٤)

تَصِيحُ بها الأصْداءُ فى غَسَقِ الدُّجَى ... صِيَاحَ الثَّكالَى هَيَّجَتْها النَّوائِحُ(٥)

تَرَدَّتْ بِسَمُّورِ الْغَمامِ جِبَالُها ... ومَاجَتْ بِتَيَّارِ السُّيُولِ الْبَطَائِحُ(٦)

---

(١) النهل : أول الشرب . واللألاء : اللمعان .

(٢) يفل : يثلم ويكسر . وقبضته : قدر ما تقبض عليه منه . وفلل : انثلام وتكسر .

(٣) القطا : نوع من الحمام يضرب المثل بهدايته . والجنان : جمع جان . وسوارح : جمع سارحة من سرحت الإبل رعت بنفسها ، ويراد بالسوارح هنا السائرة المطلقة .

(٤) أقطار : جمع قطر وهو الناحية . والدياميم : جمع ديمومه وهى الأرض القفر أو الصحراء الواسعة . وعدا : جرى . وسليك : هو سليك بن سلكه لصعلوك عداء يضرب به المثل فى العدو . وجرى شأواً : جرى شوطا والشأو ، فى الأصل الغاية والأمد . وقضى : مات . ورازح : سقط إعياء .

(٥) الأصداء : جمع الصدى : وهو طائر يصر بالليل ، وهو أيضاً رجع الصوت فى الخلاء . الغسق : ظلمة أول الليل . والثكالى : جمع ثكلى وهى المرأة التى فقدت ولدها .

(٦) تردت : لبست الرداء . والسمور : حيوان برى يتخذ من جلده فراء ثمينة وهو يشبه النمس ويكثر ببلاد الروس . البطائح : جمع بطيحة وهى مسيل الماء فيه دقاق الحصى .

فأَنْجَادُهَا للـكَاسِرَاتِ مَعَاقِلٌ ... وَأَغْوَارُها لِلْعَاسِلَاتِ مَسَارِحُ (١)

مَهَالِكُ يَنْسَى المرءُ فِيها خَلِيلَهُ ... وَيَنْدُرُ عَنْ سَوْمِ العُلَا مَنْ يُنَافِحُ (٢)

فلا جَوَّ إلّا سَمْهَرِىٌّ وقاضِبٌ ... ولا أرضَ إلاَّ شَمَّرِىٌّ وسابِحُ (٣)

ترانا بِهـا كالأُسْدِ تَرْصُدُ غارةً ... يَطِيرُ بها فَتْقٌ مِن الصُّبْحِ لامِحُ (٤)

مدافِعُنَا نُصْبَ العِدَا ومُشَاتُنَا ... قيامٌ تليها الصَّافِنَاتُ القوارِحُ (٥)

ثلاثةُ أصـنافٍ تقيهنَّ ساقةٌ ... صِيَالَ العِدا إنْ صاحَ بالشَّرِّ صَائِحُ (٦)

فلستَ تَرَى إلّا كُمَاةً بواسِلاً ... وجُرْداً تَخُوضَ الموتَ وَهْىَ ضَوَابِحُ (٧)

نُغيرُ على الأبْطَالِ والصُّبْحُ باسِمٌ ... وَنَأوِى إلى الأدْغَالِ والليلُ جَانِحُ (٨)

بَكَى صَاحِبِى لمَّا رَأَى الحربَ أقْبَلَتْ ... بِأَبْنَائِها ، والْيَوْمُ أغْبَرُ كالِحُ (٩)

---

(١) الأنجاد : جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض . والكاسرات : الطيور تكسر أجنحتها أى تضمها للوقوع . والأغوار : جمع غور ، وهو المنخفض من الأرض . والعاسلات : الذئاب من عسل الذئب اضطرب فى عدوه وهز رأسه .

(٢) يندر : هنا بمعنى يسقط أو يهلك . سوم العلا : المراد به طلب الرفعة من سام البائع السلعة إذا عرضها للبيع وذكر ثمنها ، وسامها المشترى طلب بيعها . ينافح : يكافح .

(٣) السمهرى : الرمح الصلب . والقاضب : السيف القاطع . والشمرى : الشجاع المجرب . والسابح : الفرس السريع العدو .

(٤) ترصد : ترقب : وفتق الصبح : انشقاق الفجر . ولامح : لامع .

(٥) نصب العدا : أمامهم . والعدا : اسم جمع لعدو . والصافنات : جمع الصافن وهو من الخيل ما يقف على ثلاثة قوائم ، وقد أقام الرابعة على طرف الحافر وهو من صفات الجودة فى الخيل . والقوارح : جمع قارح وهو من الخيل ما بلغ الخامسة من العمر .

(٦) ساقة الجيش : مؤخره . صيال : من صال على خصمه إذا سطا عليه و بطش به .

(٧) الكماة : جمع كمى وهو الشجاع والفارس فى كامل سلاحه . و بواسل . جمع غير قياسى لباسل وهو البطل الشجاع . والجرد : جمع أجرد وهو الفرس السباق وأصله قصير الشعر وهو من صفات الجودة فى الخيل . وضوابح : جمع ضابح ، وضبح الخيل صوت أنفاسها عند العدو .

(٨) الأدغال : جمع دغل (بفتحتين) وهو الشجر الكثير الملتف . وجانح : مقبل .

(٩) كالح : عبوس هائل .

وَلَمْ يَكُ مَبْكَاهُ لِخَوْفٍ وَإِنَّمَا ... تَوَهَّمَ أَنِّى فِى الْكَرِيهَةِ طَائِحُ(١)

فَقَالَ اتَّئِدْ قَبْلَ الصِّيَالِ وَلاَ تَكُنْ ... لِنَفْسِكَ حَرْبًا ، إِنَّنِى لَكَ نَاصِحُ(٢)

أَلَمْ تَرَ مَعْقُودَ الدُّخَانِ ، كَأَنَّمَا ... عَلَى عَاتِقِ الْجَوْزَاءِ مِنْهُ سَرَائِحُ(٣)

وَقَدْ نَشَأَتْ لِلْحَرْبِ مُزْنَةُ قَسْطَلٍ ... لَهَا مُسْتَهِلٌّ بِالْمَنِيَّةِ رَاشِحُ(٤)

فَلاَ رَأْىَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِنَجْوَةٍ ... فَإِنَّكَ مَقْصُودُ الْمَكَانَةِ وَاضِحُ(٥)

فَقُلْتُ تَعَلَّمْ إِنَّمَا هِىَ خُطَّةٌ ... يَطُولُ بِهَا مَجْدٌ ، وَتَخْشَى فَضَائِحُ(٦)

فَمَا كُلُّ مَا تَرْجُو مِنَ الأَمْرِ نَاجِعٌ ... وَلَا كُلُّ مَا تَخْشَى مِنَ الْخَطْبِ فَادِحُ(٧)

فَقَدْ يَهْلِكُ الرِّعْدِيدُ فِى عُقْرِ دَارِهِ ... وَيَنْجُو مِنَ الْحَتْفِ الْكَمِىُّ الْمُشَايِحُ(٨)

وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا مُلَاقٍ حِمَامَهُ ... وَإِنْ عَارَ فِى أَرْسَانِهِ وَهْوَ جَامِحُ(٩)

---

(١) توهم : ظن . والكريهة : الحرب . وطائح : هالك .

(٢) اتئد : تأن وتمهل : والصيال : السطو والبطش .

(٣) العاتق : ما بين المنكب والعنق . والجوزاء كوكب . والسرائح : جمع سريحة وهى القطعة من الثوب والمراد قطع الدخان ، والمعنى : أن دخان الحرب معقود فى الجو مرتفع ، كأنما الجوزاء قد حملت على عاتقها قطعاً منه .

(٤) المزنة : السحابة . والقسطل : الغبار . واستهل المطر : اشتد انصبابه فالمطر مستهل أى شديد الانصباب . ورشح الماء : خرج من مسام إناء أو غيره . يريد أن يقول : بأنه قد نشأ فى سماء ميدان الحرب من غبارها ما يشبه السحابة التى تصب الموت والعناء .

(٥) النجوة : ما ارتفع من الأرض ، والمراد المكان البعيد عن الخطر . مقصود المكانة : معروف مكانك ومنزلتك من الجند لعلو قدرك .

(٦) تعلم : اعلم .

(٧) ناجع : نافع ذو أثر ظاهر . والخطب : النازلة ، وفادح : صعب وشاق .

(٨) الرعديد : الجبان . وعقر داره : وسطها : والحتف : الموت . والكمى : الشجاع أو الفارس فى كامل عدته . والمشايح : المقاتل .

(٩) الحمام : الموت . وعار الفرس يعير : ذهب كأنه منفلت من صاحبه . والأرسان : جمع رسن وهو الحبل . وجامح : مستعصى ، ومعنى البيت : أن الإنسان يلاقى حتما ما قدر عليه من الموت ، وإن فر من أسبابه فرار الفرس الجموح .

وصف جيش العدو

مر بنا أن البارودى اشترك فى الحملة التى أرسلتها مصر لمساعدة تركيا فى حربها مع روسيا سنة ١٨٧٧ ، وكان من حظه أن نزل بمقاطعة أكرانيا من روسيا فى « سرنسوف » على أحد روافد نهر دنيبر . وقد اشترك مع الروس فى الحرب أهل رومانيا وبلغاريا والصرب والجبل الأسود . وهو هنا يصف هذه البلاد ، ويصف رجال تلك الجيوش التى يحاربها فقال من قصيدة طويلة :

بِلاَدٌ بها ما بالجحيم وإنما ... مَكانَ اللَّظى ثَلْجٌ بها وجَلِيدُ (١)

تَجَمَّعَتِ البُلْغارُ والرُّومُ بينها ... وزَاحَمَها التَّاتارُ ، فهى حُشُودُ (٢)

إذا رطنوا بَعْضاً سمعت لِصَوْتِهِمْ ... هَدِيداً تَكادُ الأرْضُ منه تَميدُ (٣)

قِباحُ النّواصِي والوُجُوهِ كأنّهُمْ ... لِغَيْرِ أبِى هَذَا الأنَامِ جُنُودُ (٤)

سَواسِيَةٌ ، ليسوا بِنَسْلِ قَبِيلَةٍ ... فَتُعْرَفَ آباءٌ لَهُمْ وجُدُودُ (٥)

لَهُمْ صُوَرٌ لَيْسَتْ وجُوهاً وإنما ... تُنَاطُ إلِيها أعْيُنٌ وَخُدُودُ (٦)

والمعنى مأخوذ من قول طرفة بن العبد :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخى وثنياه باليد

والطول : الحبل :

(١) الجحيم : النار الشديدة التأجج . وكل نار عظيمة فى حفرة . واللظى : النار أو لهبها .

(٢) حشود : جماعات .

(٣) الرطانة : الكلام باللغة الأعجمية ، وراطنه كلمه بها ، والكلام الفصيح راطن بعضهم بعضاً . وهديداً : دوياً أو صوتاً غليظاً كهدير البعير . تميد : تتحرك .

(٤) النواصى : جمع ناصية وهى قصاص الشعر حيث ينتهى منبته من متقدم الرأس ، والمراد هنا الجباه . والأنام : الناس ، وأبو الأنام : آدم عليه السلام . يقول : إنهم ليسوا من أبناء آدم لقبحهم ودمامتهم .

(٥) سواسية : جمع سواء (على غير قياس) والمعنى متساوون في القبح . يرميهم بالقبح ، وبأنهم أخلاط من قبائل وأجناس شتى .

(٦) تناط : تعلق . يقول : إن وجوههم لا تشبه وجوه الناس . وإنما هى صور غريبة علقت بها عيونهم وخدودهم .

يَخُورونَ حَوْلِى كالعُجُول وبعضُهم يُهَجِّن لَحْنَ الْقَولِ حِينَ يُجِيدُ(١)
أَدورُ بعَيْنِى لاَ أَرى بَيْنَهمْ فَتىً يَرُودُ مَعِى فى الْقَوْلِ حَيْثُ أَرُودُ(٢)
فَلاَ أَنَا مِنْهُمْ مُسْتَفِيدٌ غَريبةً وَلاَ أَنَا فيهم ما أَقمتُ مُفِيدُ
فَمَنْ لى بأَيَّامٍ مَضَتْ قَبْلَ هَذِه بِمصرَ ؟ وعَيْشِى لَوْ يدومُ حَميدُ(٣)

وصف الهرمين

رأينا أن البارودى قد برع فى وصف الطبيعة بمناظرها المختلفة ، ولكنه لأول مرة فى تاريخ الشعر المصرى نجد شاعراً يقف وقفة طويلة أمام الهرمين ويفرد لوصفهما قصيدة ، ولم يكن الشعراء قبله يهتمون بهما ، وإنما يذكرونهما فى بيت أو شطر بيت على سبيل العظة . والآثار المصرية جزء من الطبيعة المصرية ، ووصفها دليل الإعجاب والحب والوطنية . وقد مهد البارودى السبيل لشوقى وضرب له مثلا . بل إن البارودى كان أقوى إحساساً بمصر وطبيعتها من كثير من الشعراء الذين أتوا بعده ، والذين لا نكاد نعثر على بيت واحد فى شعرهم ينبئ عن حب لمصر وآثارها وطبيعتها .

سَلِ الجيزةَ الفيحاءَ عَنْ هَرَمَىْ مِصْرِ لَعَلَّكَ تَدْرِى غَيْبَ مَالَمْ تَكُنْ تَدْرِى(٤)
بِنَاءانِ رَدَّا صَوْلَةَ الدَّهْرِ عَنْهُمَا وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يَغْلِبَا صوْلَةَ الدَّهْرِ(٥)
أَقَامَا على رَغْمِ الخُطُوبِ لِيَشْهَدَا لِبَانِيهِما بَيْنَ الْبَرِيَّةِ بِالْفَخْرِ(٦)
فَكَمْ أُمَمٍ فى الدَّهْرِ بادَتْ وأَعْصُرٍ خَلَتْ ، وهُمَا أُعْجُوبَةُ الْعَيْنِ والْفِكْرِ

(١) يخورون : يصيحون وهو من خار الثور. يهجن : يقبح . ولحن القول : فحواه ومعناه ويريد بلحن القول هنا اللغة العربية يقول : إن رطانتهم تشبه خوار البقر ، وإن بعضهم يحاول إجادة النطق بالعربية ، فيجعلها قبيحة معيبة تشوهها هجنة الأعاجم .

(٢) يرود : يجيء ويذهب ويتردد . يعنى أنه ليس فيهم من يستطيع محاورته باللسان العربى .

(٣) حميد : محمود غير مذموم .

(٤) الفيحاء : الواسعة . وهرما مصر : هما الأكبر وقد بناه (خوفو) والثانى وقد بناه (خفرع) وهما من ملوك الأسرة الرابعة (من سنة ٢٩٠٠ — إلى سنة ٢٧٥٠ ق م) .

(٥) صولة الدهر : استطالته وسطوته وبطشه .

(٦) الخطوب : نوازل الدهر . والبرية : الخلق (بفتح الخاء) .

تَلُوحُ لآثارِ العُقُولِ عَلَيْهِما ... أَساطِيرُ لا تَنْفَكُّ تُتلَى إلى الحَشْرِ (١)

رُمُوزٌ لو استَطْلَعْتَ مَكنُونَ سِرِّها ... لأبصَرْتَ مَجْمُوعَ الخلائقِ فى سَطْرِ (٢)

فما مِنْ بِناءٍ كان ، أو هو كائنٌ ... يُدانيهما عِندَ التأمُّلِ والخُبْرِ

يُقصِّرُ حُسْناً عَنهما « صَرْحُ بابلٍ » ... وَيَعترِفُ « الإيوانُ » بالعَجزِ والبَهْرِ (٣)

فلَوْ أنَّ « هارُوتَ » انتحَى مَرْصَدَيهما ... لأَلْقَى مَقاليدَ الكَهانَةِ والسِّحرِ (٤)

كأنهما ثَدْيانِ فاضَا بدِرَّةٍ ... مِنَ النِّيلِ تُروِى غُلَّةَ الأَرضِ إذْ تَجْرِى (٥)

وَبَيْنَهما « بَلْهِيبُ » فى زِيِّ رابضٍ ... أَكَبَّ عَلَى الكَفَّيْنِ مِنْهُ إلى الصَّدْرِ (٦)

يُقلِّبُ نَحْوَ الشَّرْقِ نَظْرَةَ وَامِقٍ ... كأنَّ لَهُ شَوْقاً إلى مطلعِ الفَجْرِ (٧)

مَصَانِعُ فيها لِلعُلُومِ غَوامِضٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّ ابنَ آدمَ ذُو قَدْرِ (٨)

---

(١) تلوح : تبدو وتظهر ، ويريد بظهور آثار العقول على الهرمين ما يتجلى للناظر إليهما من عبقرية الذين أشرفوا عليهما ورفعوا قواعدهما . والأساطير : جمع أسطار (بفتح فسكون) ، والأسطار : جمع سطر وهو الصف من الكتابة .

(٢) يريد أنك لو فهمت هذه الإشارات والرموز واطلعت على سر العظمة التى تخفيها لرأيت بعين خيالك صور الأمم التى نزلت بهذا الوادى من مصريين قدماء ورعاة وفرس وروم وعرب وترك وفرنسيين وغيرهم ، وأنهم قد زالوا ، وبقيت هذه الآثار قوية شامخة تحدثنا بأخبارهم جميعاً .

(٣) الصرح : القصر العظيم المنفرد العالى . وبابل مدينة من أعظم مدن العالم القديم على الجانب الأيسر من الفرات ولا تزال بعض آثارها موجودة حتى اليوم بالقرب من الحلة ، وقد بناها « الكلدان » ، وصرحها الذى يشير إليه الشاعر كان لبختنصر ، وكان يعد من عجائب الدنيا . والإيوان : يريد به إيوان كسرى أنوشروان بالمدائن . والبهر : مصدر بهره أى غلبه وفضله .

(٤) هاروت : اسم ساحر أو ملك (بفتح الميم واللام) كان يعلم الناس السحر وقد ورد ذكره فى القرآن (آية ١٠٢ سورة البقرة) . ومرصداهما : قمتاهما (كأنهما يرصدان النجوم لارتفاعهما) . والمقاليد : جمع مقلد أو مقلاد وهو المفتاح .

(٥) غلة الأرض : شدة العطش وحرارته .

(٦) بلهيب : أبو الهول .

(٧) وامق : محب .

(٨) المصانع : المبانى من القصور والحصون ونحوها . ذو قدر : ذو منزلة عالية .

رَسَا أَصْلُها ، وامْتَدَّ فى الجوِّ فرعُها ... فَأَصبحَ وَكْراً للسِّماكَيْنِ والنَّسْرِ (١)

فَثَمَّ نَغْتَرِفْ خَمْرَ النُّهى من دِنَانِها ... وَنجْنِي بِأَيْدِي الجِدِّ رَيْحَانَةَ العُمْرِ (٢)

فَثَمَّ علومٌ لَمْ تُفتَّقْ كِمَامُها ... وَثَمَّ رُمُوزٌ وَحْيُها غَامِضُ السِّرِّ (٣)

أَقمْتُ بها شَهْراً فأَدْرَكْتُ كُلَّ ما ... تَمَنَّيْتُه مِنْ نِعْمَةِ الدَّهْرِ فِى شَهْرِ (٤)

نَرُوحُ ونَغْدو كُلَّ يَوْمٍ لِنَجْتَنِي ... أَزَاهِيرَ عِلْمٍ لَا تَجِفُّ مَعَ الزَّهْرِ

إذَا ما فَتَحْنَا قُفْلَ رَمْزٍ بَدَتْ لَنَا ... مَعَارِيضُ لَمْ تُفْتَحْ بِزِيجٍ وَلَا جَبْرِ (٥)

فَكَمْ نُكتٍ كالسِّحْرِ فِى حَرَكاتِهِ ... تُرِيكَ مَدَبَّ الرُّوحِ فى مُهْجَةِ الذَّرِّ (٦)

سَكِرْنَا بِمَا أَهْدَتْ لَنَا مِنْ لُبَابِها ... فَيَالَكَ مِنْ سُكْرٍ أُتِيحَ بِلَا خَمْرِ (٧)

وما سَاءَنِى إلاَّ صَنِيعُ مَعَاشِرٍ ... أَلَحُّوا عَلَيْها بالخِيانَةِ والغَدْرِ (٨)

---

(١) السماكان : الأعزل والرامح وهما نجمان نيران . والنسر : علم على كوكبين يقال لأحدهما : النسر الطائر ، والآخر النسر الواقع ، وفى التعبير بكلمة (وكر) مناسبة لطيفة للفظ « النسر » .

(٢) النهى : العقل ، أو هو جمع نهية (بضم النون) وهى العقل . والدنان : جمع دن (بفتح الدال) وهو إناء عظيم واسع الفم توضع فيه الخمر .

(٣) ثم (بثاء مفتوحة وميم مشددة) : هناك وهو للبعيد بمنزلة هنا للقريب : تفتق : تشق . وكمام : جمع كم « بكسر الكاف » وهو فى الأصل وعاء الطلع وغطاء الزهر . وحيها : الكتابة . يشير إلى أن آثار الأقدمين لم تدرس بعد الدراسة الكافية ، وأننا لم نصل إلى كل علوم الأقدمين .

(٤) بها : أى بهذه المصانع وبين هذه الآثار .

(٥) المعاريض : جمع معراض وهو الستر والمراد بالمعاريض هنا : خفايا التاريخ ودقائق العلوم والفنون . والزيج (بكسر الزاى) : جدول يستدل به على حركة النجوم لمعرفة مواقعها . والجبر : العلم الرياضى المعروف .

(٦) النكت : جمع نكتة وهى الأثر القليل يشبه النقطة والمراد هنا النقش الدقيق المحكم . حركاته : الضمير يعود على السحر والمراد أعاجيبه ، ومدب الروح . دبيبها وحركتها . المهجة : الدم أو دم القلب خاصة ، والمراد بها هنا الجسم . والذر : صغار النمل الواحدة ذرة ، وهو يشير بهذا إلى صغر النقوش وإحكامها وشدة تأثيرها فى النفوس .

(٧) لباب الشىء : خالصه ، والمراد بلباب المصانع والآثار : أسرار صنعها ودلالتها على أحوال أهلها .

(٨) يشير إلى لصوص المقابر الذين سطوا عليها فى مختلف الأزمان وسلبوا تحفها وذخائرها وضيعوا جمالها ، كما يشير إلى الذين شوهوا هذه الآثار حسداً على من خلفوها .

أَبَادُوا بِها شَمْلَ الْعُلُومِ وشَوَّهُوا ... مَحَاسِنَ كانَتْ زِينة الْبَرِّ والْبَحْرِ

فَكَمْ سَمَلُوا عَيْناً بِها تُبْصِرُ الْعُلَا ... وشَلُّوا يَداً كانَتْ بِها رايَةُ النَّصْرِ (١)

تَمَنَّوْا لُقَاطَ الدُّرِّ جَهْلاً ومَا دَرَوْا ... بِأَنَّ حصَاها لا يُقَوَّمُ بالدُّرِّ (٢)

وفَلُّوا لِجَمْعِ التِّبْرِ صُمَّ صُخُورِها ... وَأَيْسَرُ مَا فَلُّوهُ أَغْلَى مِنَ التِّبْرِ (٣)

ولَكِنَّهُمْ خَابُوا فَلَمْ يَصِلوا إلى ... مُنَاهُمْ ولَا أبْقَوْا عَلَيْها من الْخَتْرِ (٤)

فَتَبًّا لَهُمْ مِنْ مَعْشَرٍ نَزَعَتْ بِهِمْ ... إلى الْغَيِّ أَخْلَاقٌ نَبَتْنَ عَلَى غِمْرِ (٥)

أَلَا قَبَّحَ اللهُ الْجَهَالَةَ إِنَّهَا ... عَدُوَّةُ مَا شَادَتْهُ فِينَا يَدُ الْفِكْرِ

فَلَوْ رَدَّتِ الأَيَّامُ مُهْجَةَ « هُرْمُسٍ » ... لَأَعْوَلَ مِنْ حُزْنٍ على نُوَبِ الدَّهْرِ (٦)

فيانَسَمَاتِ الْفَجْرِ أَدِّى تَحِيَّتِى ... إلى ذَلِكَ الْبُرْجِ الْمُطِلِّ على النَّهْرِ (٧)

---

(١) سمل عينه : فقأها بحديدة محماة أو بغيرها . وشلت اليد (من باب تعب) إذا فسدت عروقها وبطلت حركتها . والمعروف فى المعاجم أن هذا الفعل لازم ويتعدى بالهمزة فيقال : أشل الله يد فلان ، والشاعر هنا استعمله متعدياً بنفسه ولعله ضمنه معنى قطع وبتر وهو المعنى المراد هنا .

(٢) لقاط : (بكسر اللام أخذ الشيء من الأرض) وبضم اللام : المال الملتقط ، والدر : ما اعتاد القدامى دفنه مع جثث عظمائهم من التحف والنفائس .

(٣) فلوا : كسروا . والتبر : الذهب قبل أن يصاغ ، والمراد هنا الذهب مطلقاً . وصم : جمع أصم وصماء وهو الحجر الصلب .

(٤) الختر : الغدر والخيانة .

(٥) تباً : خساراً وهلاكا . نزعت : مالت وذهبت . والغمر : الحقد .

(٦) هرمس : فيما يزعم الرواة الأقدمون أول من بنى الهياكل وتكلم فى الأشياء العلوية ، ونظر فى الطب والحكمة . وأعول : بكى . وعلى (هنا) بمعنى من .

(٧) البرج : الحصن ويريد بالبرج الهرم .

وصف مجلس أنس

كان البارودى فى مبدأ حياته ممن يؤثرون الجد وارتكاب الصعاب فى سبيل المجد ، ولكنه حين اجتمع لديه الشباب والجاه والمال لم يجد بأساً فى أن يغشى أماكن اللذات ومجالس الأنس والطرب شأن أبناء الطبقة الغنية فى عهده ، وقد أكثر فى شعره من وصف هذه المجالس وتأثير الخمر فى نفسه ونفس الندماء ، بيد أنه ما لبث أن أقلع عن كل ذلك حين أدرك أن هذه اللذات مخلقة للشباب ، مميتة للحيوية وأنها تورث الأسقام والعلل ، كما وضحنا ذلك فى الكلام عن أخلاقه . ومن أوصافه لمجالس الأنس قوله :

وَقَدْ شَاقَنِى والصُّبْحُ فِى خِدْرِ أُمِّهِ ... حَنِينُ حَمَامَاتٍ تَجَاوَبْنَ فى وَكْرِ (١)

هَتَفْنَ فَأَطْرَبْنَ الْقُلُوبَ ، كأَنَّما ... تَعَلَّمْنَ أَلْحَانَ الصَّبَابَةِ مِن شِعْرِى (٢)

وَقَامَ على الجدْران أَعْرَفُ لَمْ يَزَلْ ... يُبَدِّدُ أَحْلَامَ النِّيامِ وَلا يَدْرِى (٣)

تَخَايَلَ فى مَوْشِيَّــةٍ عَبْقَرِيَّةٍ ... مُهَدَّلَةِ الأَرْدَانِ سَابِغَةِ الأُزْرِ (٤)

لَهُ كِبْرَةٌ تَبْدو عَلَيْهِ كأَنَّهُ ... مَلِيكٌ عَلَيْهِ التّاجُ يَنْظُرُ عَنْ شَزْرِ (٥)

فَسَارِعْ إلى رَاعِى الصَّبُوحِ مَعَ النَّدى ... لِتَجْنِى بأَيْدِى اللَّهْوِ بَاكُورَةَ الْعُمْرِ (٦)

---

(١) شاقنى : هاج شوقى . الخدر : الستر . وفى خدر أمه يريد أنه فى أول ظهوره على التشبيه بالطفل . تجاوبن : جاوب بعضها بعضاً . والوكر : عش الطائر

(٢) الصبابة : الشوق ، أو رقته وحرارته ، أو رقة الهوى .

(٣) أعرف : له عرف (بضم فسكون) ويريد بالأعرف الديك .

(٤) تخايل : مشى فى عجب وكبر . موشية : منقوشة (يريد ريشه المنقوش) ، عبقرية تامة الحسن نسبة إلى عبقر – وهو فيما تزعم العرب – موضع كثير الجن ينسبون إليه كل شىء تعجبوا من حسنه وكماله . مهدلة : مسترسلة مرخاة طويلة . الأردان : جمع ردن (بضم فسكون) وهو أصل الكم والمراد هنا الكم وسابغة واسعة طويلة تامة . والأزر : جمع إزار وهو الثوب والملحفة وكل ما ستر الجسم .

(٥) الكبرة : الكبر والتأنيث فيها للمبالغة . وشزر : يقال نظر إليه شزراً إذا كان بمؤخر عينه وهو نظر فيه إعراض وتكبر كنظر الغضبان .

(٦) الصبوح : شراب الصبح . وباكورة الفاكهة : أول ما يدرك منها وينضج .

فَقَدْ نَسَمَتْ رِيحُ الشَّمالِ فَنَبَّهَتْ عُيون القَمارِى وَهْىَ فى سِنةِ الْفَجرِ (١)
وَنَادى الْمُنَادى للصَّلاةِ بِسُحْرَةٍ فَأَحْيَا الْوَرَى مِنْ بَعْدِ طَىٍّ إلى نَشْرِ (٢)
فَبَادِرْ لميقـات الصَّلاةِ وَمِلْ بنَا إلى الْقَصْفِ مَا بَيْنَ الجزيرةِ والنَّهْرِ (٣)
إذا ما قضَيْنا وَاجِبَ الدِّين حَقَّهُ فلَيْسَ عَلَينا فى الخلاعَةِ مِنْ وزرِ (٤)
ألا رُبَّ يَوْمٍ كانَ تاريخَ صَبْوَةٍ مَضَى غَيْرَ إِثْرٍ فى المخيلةِ أَوْ ذِكْرِ (٥)
عَصَيْتُ به سُلْطَانَ حِلْمِى وقَادَنى إلى اللَّهْوِ شَيْطَانُ الخلاعةِ والسُّكْرِ (٦)
لدَى رَوْضَةٍ رَيَّا الغُصُونِ تَرَنَّحَتْ مَعَاطِفُها رَقْصاً على نَغْمَةِ الْقُمْرِى (٧)
تَدُورُ عَلَيْنا بالمُـدَامَةِ بَيْنهَا تَمَاثِيلُ ؛ إلاّ أنها بَيْنَنا تَجْرِى (٨)
تَرى كُلَّ مَيْلاَءِ الخمَارِ من الصِّبَا هَضِيمَةَ مَجْرى الْبَنْدِ نَاهِدَةَ الصَّدْرِ (٩)

---

(١) القمارى بتشديد الياء : جمع قمرية : نوع من الحمام وخففت الياء هنا للضرورة الشعرية ، والقمرة فى الأصل البياض أو بياض به كدرة . والسنة : النعاس أو أول النوم .

(٢) السحرة : الوقت قبيل الفجر . الورى : الخلق والناس . والمراد بالطى النوم . وبالنشر اليقظة .

(٣) القصف : اللهو واللعب . ويريد بالجزيرة : روضة المقياس فى نهر النيل شرق الجيزة ، وغرب مصر القديمة .

(٤) الخلاعة : المجون وعدم المبالاة . والوزر : الإثم والذنب .

(٥) الصبوة : الميل إلى الجهل والفتوة . والإثر (بكسر الهمزة) : الأثر (بفتحتين) والمراد الصورة . والمخيلة : الوهم والخيال . والذكر : التذكر أو ما يردده اللسان . يقول : إنه يحن إلى تلك الأيام التى كان فيها لاهياً ناعماً مرحاً يستمتع كما يستمتع الفتيان ، ولكن تلك الأيام قد ذهبت ولم يبق منها إلا صورة فى المخيلة ، أو ما أردده بلسانى .

(٦) الحلم : الأناة والعقل .

(٧) ريا الغصون : خضرة من الرى (بكسر الراء) وهو ضد العطش . معاطفها : جوانبها . والقمرى : نوع من الحمام .

(٨) المدامة : الخمر . وبينها : أى بين الغصون أو بين نواحى هذه الروضة . التماثيل : أراد بها الفتيات الحسان اللائى يسقينهم .

(٩) ميلاء : مائلة . والخمار : ثوب تغطى به المرأة رأسها . هضيمة : ضامرة . والبند : النطاق . ومجرى البند : الخاصرة والوسط .

إذا انفلَتَتْ فى حَاجَةٍ خِلتَ جُؤذُراً ... أحَسّ بِصَيَّادٍ فأتْلَعَ مِنْ ذُعْرِ [١]

لَوَى قدَّها سُكْرُ الْخَلاعَةِ والصِّبَا ... فمَالَتْ بِشَطْرٍ واسْتقَامَتْ على شَطْرِ [٢]

وَعَلَّمها وَحْىُ الدَّلَالِ كَهَانَةً ... فإنْ نَطقَتْ جَاءَتْ بِشَىْءٍ من السِّحْرِ [٣]

أحَسّتْ بِمَا فى نَفْسِها مِنْ مَلَاحَةٍ ... فتَاهَتْ عَلَيْنَا ، والملاحَةُ قَدْ تُغْرى

وأعْجَبَها وجْدِى بِهَا ، فَتَكبّرَتْ ... عَلَىَّ دَلَالاً ، وَهِىَ تَصْدُرُ عَنْ أمْرِى [٤]

فَتَاةٌ يَجُولُ السِّحْرُ فى لَحَظَاتِها ... مَجَالَ المَنَايَا فى الْمُهَنَّدَةِ الْبُتْرِ [٥]

إذَا نَظَرَتْ أوْ أقْبَلَتْ أو تَهَلَّلَتْ ... فَوَيْلُ مَهَاةِ الرَّمْلِ والْغُصْنِ والْبَدْرِ [٦]

فَمَا زِلْنَ يُغْرِينَ الطِّلَا بِعقُولِنَا ... إلى أنْ سَقَطْنَا لِلْيَدَيْنِ ولِلنَّحْرِ [٧]

فمِنْ وَاقِعٍ يَهْذِى ، وآخَرَ ذَاهِلٍ ... لهُ جَسَدٌ ما فيه رُوحٌ سِوى الْخَمْرِ [٨]

صَرِيعٌ يَظُنُّ الشُّهْبَ منهُ قَرِيبَةً ... فَيَسْدُو بِكَفَيْهِ إلى مَطْلَعِ النَّسْرِ [٩]

---

(١) انفلتت : انصرفت . والجؤذر : ولد البقرة الوحشية تشبه به المرأة الحسناء فى الرشاقة وجمال العيون وسعتها . وأتلع الظبى ونحوه : مد عنقه وارتفع به .

(٢) القد : القوام . وشطر كل شىء : نصفه .

(٣) الوحى : الإشارة والإلهام . كهانة : المراد هنا السحر أو عذوبة القول ولطف الحديث لأن الكاهن يستميل من يكهن له بكلام ساحر شديد التأثير .

(٤) وجدى بها : محبتى لها . تصدر عن أمرى : تطيعه ولا تخالفه .

(٥) يجول : يطوف ويتردد . والمهندة . السيوف المطبوعة من حديد الهند وهى أجود السيوف والبتر : جمع أبتر أى نافذ قاطع .

(٦) تهللت : تلألأ وجهها وأشرق . والمهاة : البقرة الوحشية تشبه بها الحسناء فى جمال عيونها

(٧) أغراه بالشىء : أولعه به وحفزه إليه . والطلاء : الخمر وقصرت هنا للضرورة . والنحر : موضع القلادة من الصدر .

(٨) يهذى : يتكلم بغير المعقول .

(٩) صريع : مطروح على الأرض . والشهب : النجوم السبعة المعروفة بالدرارى . يسدو بكفيه : يمدهما من سدا يسدو . والنسر : كوكب معروف وهما اثنان يقال لأحدهما النسر الطائر والآخر النسر الواقع .

إذا ما دَعَوْتَ الْمَرْءَ دَارَ بِلَحْظِه ... إليكَ وغَشَّاهُ الذُّهول عَنِ الْجَهْرِ (١)

بَعِيدٌ عَنِ الدَّاعِي وإنْ كانَ حاضِراً ... كأَنَّ بهِ بَعْضَ الْهَنَاتِ مِنَ الْوَقْرِ (٢)

تَحَكَّمَتِ الصَّهْبَاءُ فِيهِمْ فَغَيَّرَتْ ... شَمَائِلَ مَا يأتِي بِهِ الجِدُّ بالْهَذْرِ (٣)

فَيَا سامَحَ اللهُ الشَّبَابَ وإنْ جَنَى ... عَلَيَّ وَحَيَّا عَهْدَهُ سَبَلُ الْقَطْرِ (٤)

ألا لَيْتَ هَاتِيكَ اللَّيَالِى وقَدْ مَضَتْ ... تَعُودُ ، وذَاكَ الْعَيْشُ يَأْتِي عَلَى قَدْرِ (٥)

لَعَمْرُكَ ما فِى الدَّهْرِ أَطيبُ لَذَّةً ... مِنَ اللَّهْوِ فِى ظِلِّ الشبيبة والْيُسْرِ

د ــ الشاعر الاجتماعى

هجـــــاء

الهجاء الشخصى قليل فى شعر البارودى ، وقد قال فيه مقطوعات قصيرة ، وإن لم يفصح عن اسم المهجو . أما هجاؤه الاجتماعى فكثير ومن هجائه الشخصى قوله :

وِصَالُكَ لِى هجرٌ وهَجْرُكَ لِى وَصْلُ ... فَزِدْنِى صُدُوداً مااستطعتَ ولا تَأْلُو (٦)

إذا كان قُرْبِى مِنْكَ بُعْداً عَنِ الْمُنَى ... فلا حُمَّتِ اللُّقْيَا ولا اجتمع الشَّمْلُ (٧)

---

(١) غشاه : غطاه وغلبه .

(٢) الهنات : جمع هنه وهى الشيء اليسير ، والوقر : ثقل فى الأذن . والمعنى كأن به شيئاً من الصمم .

(٣) الصهباء : الخمر أو المعصورة من عنب أبيض . والشمائل : الخلق والطبع . والهذر الخلط فى الكلام .

(٤) السبل : المطر الغزيز المسبل كأنما أسبل ستراً أى أرسله وأرخاه . والقطر : المطر .

(٥) القدر : الغنى واليسار والقوة أو القدر : التقدير ، أى يأتى على ما أقدر وأدبر وأحب .

(٦) لا تألو : لا تقصر .

(٧) يقال حم القضاء : إذا نزل وجعل اللقيا كالمصيبة والموت . ويريد باللقيا اللقاء .

وكيفَ أَوَدُّ الْقُرْبَ مِنْ مُتَلَوِّنٍ ... كَثيرِ خبَايَا الصَّدْرِ شِيمَتُهُ الْخَتْلُ(١)

خَبُثْتَ فَلَوْ طُهِّرْتَ بالماءِ لاكْتَسى ... بكَ الماء خُبْثاً لاَ يَحِلُّ به الْغُسْلُ

فوجْهُكَ مَنْحُوسٌ وكَعْبُكَ سافِلٌ ... وقَلْبُكَ مَدْغُولٌ وعَقْلُكَ مُخْتَلٌّ(٢)

بكَ اسْوَدَّتِ الأَيَّامُ بَعْدَ ضِيَائِها ... وأَصْبَحَ نادِى الْفَضْلِ لَيْسَ به أَهْلُ

فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فى الدَّهْرِ ماانقضَّ حادثٌ ... بِقَومٍ وَلاَ زَلَّتْ بذِى أَمَلٍ نَعْلُ

فَمَا نَكْبَةٌ إلاّ وأَنْتَ رَسُولُها ... وَلاَ خَيْبَةٌ إلاّ وأَنْتَ لَهَا أَصْلُ

أَذُمُّ زَمَاناً أَنْتَ فيــــه وبَلْدَةً ... طَلَعْتَ عَلَيْها إنَّهُ زَمَنٌ وَغْلُ(٣)

ذِمامُك مَخْفُورٌ وعَهْدُكَ ضَائِعٌ ... ورَأْيُك مَأْفُونٌ وعقلك مُخْتَلٌّ(٤)

مَخَازٍ لو انَّ النَّجْمَ حُمِّلَ بَعْضَهَا ... لَعَاجَلَه مِنْ دون إِشْرَاقِه أَفْلُ

فَسِرْ غَيْرَ مأسُوفٍ عليكَ فإنما ... قُصَارَى ذَمِيمِ الْعَهْدِ أَنْ يُقْطَعَ الحبْلُ(٥)

جارة صاخبة

ومن الهجاء الاجتماعى وهو ذم عيب من العيوب المنتشرة فى المجتمع قول البارودى يذم جارة كثيرة الصخب والجلبة :

إلى اللهِ أَشْكُو طُولَ لَيْلِى وَجَارَةً ... تَبِيتُ إلى وقْتِ الصَّبَاحِ بإِعْوَالِ(٦)

---

(١) كثير خبايا الصدر : أى كثير الأحقاد والمضمرات من الشر . والختل : الخداع والمداهنه .

(٢) وكعبك سافل : أصل الكعب : الشرف والمجد . ويقال : أعلى الله كعبه دعاء له بالشرف مأخوذ من كعب الرمح . وقلبه البارودى هنا كناية عن الفسولة وضعف الهمة . وقلبك مدغول : فيه دغل وفساد ممتلىء بالأحقاد ، ولم يرد فى المعاجم مدغول على ما أعرف .

(٣) وغل : نذل دنىء والجمع أوغال .

(٤) الذمام : الحق والحرمة . ومخفور : منتهك والمأفون : الضعيف الساقط .

(٥) القصارى : الجهد والغاية وآخر الأمر .

(٦) الإعوال : ارتفاع الصوت بالبكاء .

لَهَا صِبْيَةٌ لاَ بَارَكَ اللهُ فيهمُ ... قِبَاحُ النَّواصى لا يَنمْنَ عَلَى حَالِ (١)

صَوارِخُ لا يَهْدَأْنَ إلاّ مع الضُّحَى ... مِنَ الشَّرِّ فى بَيْتٍ منَ الخير مِمْحَالِ (٢)

تَرَى بَيْنَهُم — يا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُم ... لَهِيبَ صُيَاحٍ يَصْعَدُ الفلكَ الْعَالى (٣)

كأَنَّهُم مِمَّا تَنَازَعْنَ أَكْلُبٌ ... طُرِقْنَ عَلَى حِينِ المسَاءِ بِرِئْبالِ (٤)

فَهِجْنَ جميعاً هَيْجَةً فَزِعَتْ لها ... كِلاَبُ القُرَى ما بَيْنَ سَهْلٍ وأَجْبَالِ

فَلَمْ يَبْقَ مِنْ كَلْبٍ عَقُورٍ وكَلْبَةٍ ... مِنَ الحىِّ إلاّ جَاءَ بالعَمِّ والخالِ

وَفُزِّعَتِ الأَنْعَامُ والْخَيْلُ فانْبرَتْ ... تُجَاوِبُ بَعْضًا في رُغَاءٍ وتَصْهالِ (٥)

فَقَامَتْ رِجالُ الْحَىِّ تَحْسَبُ أنها ... أُصِيبَتْ بِجَيْشٍ ذِى غَوارِبَ ذَيَّالِ (٦)

فَمِنْ حَامِلٍ رُمْحاً وَمِنْ قَابِضٍ عَصًا ... ومِنْ فَزِعٍ يَتْلو الكتابَ بِإِهْلاَلِ (٧)

ومِنْ صِبْيَةٍ رِيعَتْ لِذَاكَ ونِسْوَةٍ ... قَوائِمَ دُونَ البابِ يَهْتِفنَ بِالْوالى

فيارَبِّ هَبْ لى مِنْ لَدُنْكَ تَصَبُّراً ... على ما أُقاسيه وخُذْهُمْ بزَلْزَالِ

---

(١) والنواصى: جمع ناصية، وهى قصاص الشعر أى حيث تنتهى نبتته من مقدمة الرأس ويريد بالناصية هنا الوجه كما فى قوله تعالى: « لنسفعاً بالناصية » أى لنسودن وجهه فكفت الناصية لأنها فى مقدم الوجه. وعلى حال: على أى حال كانت.

(٢) صوارخ: جمع صارخ وصارخة. من الشر: من أجل الشر ويريد به الشجار والاشتباك فى بيت: متعلق بصوارخ. وممحال: شديد الجدب، عار من الخيرات.

(٣) لهيب صياح: أى صياح عال مشتعل كاللهيب.

(٤) تنازعن: اختلفن وتشاجرن، وأكلب: جمع كلب. والرئبال: الأسد.

(٥) تجاوب بعضاً: الصحيح تجاوب بعضها بعضاً. وتصهال: مصدر من صهل الفرس (كضرب ومنع). والرغاء: صوت ذوات الخف كالإبل ونحوها.

(٦) ذى غوارب: الغارب فى الأصل الكاهل أو ما بين السنام والعنق، ويريد بذى غوارب أنه مرتفع عظيم. وذيال: طويل الذيل.

(٧) الإهلال: رفع الصوت.

١ — المراجع العربية

إلياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد إسماعيل
ابن إياس الجركسى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور
أحمد تيمور : أعيان القرن الثالث عشر
توفيق البكرى : صهاريج اللؤلؤ
جاك تاجر : حركة الترجمة فى مصر
حسين المرصفى : الوسيلة الأدبية
رشيد رضا : مجلة المنار المجلد ٨
» » : تاريخ الشيخ محمد عبده ج ١ ، ٢
رفاعة الطهطاوى : المرشد الأمين للبنات والبنين
عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ج ١ ، ٢
عبد الله نديم : سلافة النديم
» » : التنكيت والتبكيت العدد الأول
على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٢ ، ١٣
عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث ج ١ ، ٢
عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس
: الأول وسعيد
محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى
محمد عبده : الوقائع المصرية ١٨٨٠ — ١٨٨١
» » : ترجمة السيد جمال الدين الأفغانى
» » : العروة الوثقى
محمود سامى البارودى : الديوان ج ١ ، ٢ طبعة دار الكتب المصرية ، وطبعة الجريدة

٢ — المراجع الأجنبية

Brawne : The Persian Revolution.
P.G. Elgood : The Transit of Egypt.
Journal Asiatique. Aug. 1828
Earl Cromer : Modern Egypt
Gibb. : Modern Trends in Islam

فهرست

الفصل الأول

عصر البارودى

الفصل الرابع

منتجات من آثار البارودى

صفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف
فى شهر يونيو (حزيران) سنة ١٩٥٣

مجمـــوعة
نوابغ الفكر العربى

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربى فى جميع العصور ، كما يصورهم ويترجمهم نوابغ الفكر العربى فى العصر الحاضر من كل قطر وبلد فهى تعنى بالشعراء والكتاب كما تعنى بالفلاسفة والحكماء ، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ . وقد رأت دار المعارف أن تعهد فى كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين به وذوى الخبرة والدراية فيه فيجولوا فيه ويتبعوه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعانى مبين الأغراض ملحوظاً فى اقتباسه أن يعزز الترجمة والنقد بالشواهد والأمثال .

فالمجموعة بهذه المثابة دائرة معارف كاملة تنقل الأدب الحى كما أوحت به قرائح الأدباء . وإنها لذخيرة حديثة تضاف إلى ذخائر الأقدمين ، وليس قصاراها أنها تعريف بها وحكاية عنها ، فهى تحية العصر الحاضر للعصور الماضية ، وهديته إلى العصور المقبلة ، يرجى أن يحمدها له عشاق الضاد ، كلما جرى بها قلم أو هتف بها لسان .

• ظهر منها

١ — ابن رشد	بقلم عباس محمود العقاد
٢ — الجاحظ	بقلم حنا الفاخورى
٣ — الشيخ نجيب الحداد	بقلم عادل الغضبان
٤ — محمود سامى البارودى	بقلم عمر الدسوقى

• يظهر قريباً

٥ — ابن زيدون	بقلم شوقى ضيف
٦ — الشيخ ناصيف اليازجى	بقلم عيسى ميخائيل سابا

• تحت الطبع

عدد وافر من كتب هذه المجموعة لجمهرة من نوابغ الفكر القدامى والمحدثين

ثمن النسخة ١٢٥ مليماً